تراث الإنسانية

الظاهرة الإنسانية

لبييرتا يارد وشاردان

الهيئة
المصرية
العامة
للكتاب

د. محمد الجوهرى

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٤

الظاهرة الإنسانية

الظاهرة الإنسانية

لبييرتايارد وشاردان

د. محمد الجوهرى

مهرجان القراءة للجميع ٩٤
مكتبة الأسرة
(تراث الإنسانية)

الجهات المشتركة :

جمعية الرعاية المتكاملة

وزارة الثقافة (هيئة الكتاب)

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة الحكم المحلى

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

الانجاز الطباعى والفنى

محمود الهندى

مراد نسيم

احمد صليحة

المشرف العام

د . سمير سرحان

الظاهرة الإنسانية
لبيير تايار دوشاردان

الدكتور/ محمد الجوهرى

هذا الكتاب الذى بين أيدينا جهد عظيم لإنسان أخلص لإنسانيته، وأنفق عمره كله يبحث فى مكانة الإنسان فى هذا العالم وفى الخصائص التى تنفرد بها الإنسانية عن سائر الظواهر الطبيعية والبيولوجية. وقد أراد لكتابه هذا أن يثبت قضية تركيبية ذات أجنحة ثلاث: جناحها الأول يؤلف بين العالم المادى والفيزيقى وعالم العقل والروح؛ ويجمع جناحها الثانى بين الماضى والمستقبل، ويربط جناحها الثالث بين التنوع والوحدة أو الكثرة والواحد. وقد استطاع تحقيق كل هذا بدراسة كل حقيقة وتقصى كل موضوع من خلال منظور التطور: على أساس تطوره فى الزمان، والمكان الذى يشغله على خط التطور. وقد أثبت قدرته علي رؤية

الواقع الممكن معرفته كعملية دينامية، لا كميكانيزم ثابت. ولذلك نجده مدفوعا إلى البحث عن الدلالة الإنسانية لاتجاهات تلك العملية الدينامية الشاملة والمتصلة. مشروع عظيم ليس فى ذلك شك، ولكننا لا نحكم علي تايار دو شاردان فى ضوء نيته، وإنما تتحدد منزلته علي قدر النجاح الذى أحرزه فى تحقيق سعيه هذا. وهو ما سنخرج به فى خاتمة هذا المقال.

* * *

ورغبة فى الاحاطة الكاملة بالموضوع - قدر المستطاع - نقسم عرضنا إلى أربعة أجزاء رئيسية، نتناول فى أولها المؤلف: حياته وأعماله، وفى الثانى آراءه العامة ومفاهيمه الأساسية، ثم نعرض بالتفصيل لمحتويات الكتاب أو فى الواقع للصورة التى عبر بها الكتاب عن تلك الآراء والمواقف، ونحاول فى الجزء الأخير أن نزن المؤلف بميزان النقد الموضوعى، سواء ما تعلق بآرائه واتجاهاته، أو بأسلوب اثباته لهذه الآراء ومحاولاته التدليل عليها. وسنعمل فى كل تلك الأجزاء على الاستشهاد بنصوص وفيرة مستفيضة من الكتاب

رغبة فى تقريب القارئ من فكر المؤلف وأسلوبه بشكل مباشر.

أولاً : دوشاردان، حياته ومؤلفاته :

ليس من شك في أن استعراض المعالم الأساسية لحياة الأب تايار دو شاردان سوف ساعدنا على استيضاح اتجاهات تطوره الفكرى، وما صاحب هذا التطور من ملابسات. إلا أن المكتوب عنه فى المراجع العلمية المختلفة (كالقواميس والموسوعات وكتب تاريخ الفكر الاجتماعى والفلسفى) نادر أشد الندرة، ولا يكفى على الإطلاق لالقاء الضوء على حياته. وسبب ذلك راجع - كما سنرى - إلى ظروف حياته نفسها، إذ حظرت عليه الكنيسة - متمثلة فى رؤساء الطريقة اليسوعية التى كان ينتمى إليها - الكتابة طوال حياته. ولم يخرج لنا هذا التراث إلا بعد وفاته فى عام ١٩٥٥. لذلك قدرنا أن إيفاء ترجمته فى مثل هذا السياق حقها من العناية سيكون - فوق فائدته فى فهم فكر دو شاردان - ضرورة ملحة لقراء العربية يقفون من خلالها على حياة معلم أساسى من معالم الفكر الإنسانى فى القرن العشرين. وقد أفدت فى جمع حقائق هذه الترجمة لحياة دو شاردان من

المقدمة الضافية التي كتبها السير جوليان هكسلى Sir Julian Huxley للطبعة الإنجليزية من كتابه «الظاهرة الإنسانية»، ومن الفصل الذى عقده «نيقولا تيماشيف» للكلام عن دو شاردان فى كتابه: «نظرية علم الاجتماع»[1].

ولد بيير تايار دو شاردان لواحد من صغار ملاك الأرض فى «أوفرنى» Auvergne كان إلى جانب كونه مزارعا محترما يعمل أمينا للأرشيف. فاكتسب بذلك قدرة على تذوق التاريخ الطبيعى. وقد ولد صاحبنا بيير تايار عام ١٨٨١، فكان ترتيبه الرابع بين أسرة مكونة من أحد عشر طفلا. وقد التحق فى العاشرة من عمره بالقسم الداخلى لأحد مدارس الجزويت. وأبدى اهتماما خاصا بمجالات الجيولوجيا والتعدين علاوة على تفوقه فى باقى فروع الدراسة الأخرى. ثم قرر فى الثامنة عشرة من عمره أن يصبح قسيسا يسوعيا، فانضم إلي تلك الطريقة الدينية. وفي الرابعة والعشرين من عمره - بعد فترة انقطاع قضاها فى جرسى Jersey يدرس

(١) ترجمة الدكتور محمود عودة وآخرون، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٠ صفحة ٥١٧ وما بعدها.

الفلسفة أساسا - أوفد لتدريس الفيزياء والكيمياء باحدى مدارس الجزويت بالقاهرة. وقد اكتسب خلال السنوات الثلاث التى قضاها فى مصر وسنوات أخرى أربع قضاها يدرس اللاهوت فى سسكس Sussex كفاءة حقيقية فى كل من الجيولوجيا وعلم الحفريات القديمة Palaeontology وحدث قبل رسامته قسيسا في عام ١٩١٢ أن أثارت فيه قراءته لكتاب «التطور الخلاق» لبرجسون اهتماما عميقا بالحقائق والنظريات العامة للتطور. وعمل بعد عودته إلى باريس على متابعة دراساته الجيولوجية، ويبدأ يعمل تحت اشراف «مارسلان بول» Macellin Boule أكبر علماء الآثار وما قبل التاريخ فى فرنسا فى ذلك الوقت، وذلك فى «معهد الحفريات البشرية» الملحق بمتحف التاريخ الطبيعى. وهناك التقى بصديق عمره وزميله فى دراسة ما قبل التاريخ: الأب برول Abbé Breuil، واتجهت اهتماماته لأول مرة إلى الموضوع الذى ركز حوله عمل حياته؛ وأعنى به تطور الإنسان. وفى عام ١٩١٣ زار الموقع الذى كانت قد اكتشفت فيه حديثا آنذاك جمجمة بيلتداون Piltdown وذلك بصحبة مكتشفيها الدكتور داوسون Dawson وعالم الحفريات الانجليزى الكبير

السير آرثر سميث ودوارد Woodward. وكانت هذه الزيارة بمثابة أول نافذة له على عالم الاكتشافات الحفرية المثير وأول مدخل إلي حلبة النقاش العلمي(٢).

ثم خدم ابان الحرب العالمية الأولى فى السلاح الطبى كحامل نقالة، ونال الميدالية العسكرية ووسام

---

(٢) ليس لإنسان بليتدون وجود فى حقيقة الأمر وإنما هناك بالأحرى أكذوبة بلتدون. ويرد اكتشاف هذا الإنسان المزعوم إلى المحامى البريطانى تشارلس داوسن Charles Dawson الذى أعلن فى يوم ١٨ ديسمبر عام ١٩١٢ امام الجمعية الجيولوجية بلندن عن العثور فى إحدى الحفر فى سسكس على فك وجمجمة حفريين يرجعان إلى الإنسان المبكر وأن عمرهما يرجع إلى حوالى ستمائة الف سنة. وقد اثار اكتشاف هذين الجزئين الحفريين كثيرا من الاهتمام نظرا لقلة المعروف حينئذ عن الإنسان المبكر، وأن كان الأمر أثار كثيرا من الشك والريبة فى الوقت ذاته لأنه كان يبدو ان الجمجمة هى جمجمة إنسان حديث، بينما يبدو الفك على أنه فك احد القردة العليا وكان من الصعب التوفيق بين الاثنين أو تعليل وجودهما معا فى حفرة واحدة ثم تبين بالفحص ان داخل أحد الأنياب كان لايزال يحتفظ بلونه الأبيض رغم مظهره الخارجي المتحجر القاتم اللون، وتم ذلك الكشف على يد الأستاذ أوكلى Oakly عام ١٩٥٠.
ولكن ظهرت الاكذوبة تماما فى عام ١٩٥٣ حين عكف الدكتور فاينر Weiner من جامعة اكسفورد على اجراء الكثير من الفحوص
والاختبارات على هذين الجزئين الحفريين له أن داوسن قام ببرد فك شمبانزى عادى ووضع العظام والأسنان فى بعض المحاليل الكيماوية حتى يكسبها لون الحفريات القاتم، ونشر ذلك كله فى كتاب بعنوان The Piltdown, Fake أما داوسن نفسه فقد مات عام ١٩١٦. (المحرر).

جوقة الشرف (الفرنسى). وتعلم فى تلك الفترة الكثير عن الناس وعن عالمه الذى يعيش فيه. وقد أذكت فيه الحرب الاحساس بالالتزام الدينى. وفى عام ١٩١٨ نذر نفسه نذرا ثلاثيا للفقر، والطهر، والطاعة.

وفى عام ١٩١٩ كان قد استطاع بلورة أهداف حياته الرئيسية بشكل واضح. فبالنسبة للعمل قرر أن يشق طريق العمل الجيولوجى ويستمر فيه، مع التركيز على الحفريات القديمة بصفة خاصة. أما عنه كمفكر فقد وصل فى تلك الفترة إلى النقطة التى فهم منها العالم الظاهرى كله ـ بما فيه الإنسان ـ كعملية تطورية. ووجد نفسه مدفوعا إلى وضع نظرية عامة أو فلسفة عامة للعملية التطورية تأخذ فى اعتبارها التاريخ الإنسانى والشخصية الإنسانية، وكذلك البيولوجيا؛ ويستطيع الإنسان منها أن يخرج بنتائج عن مستقبل التطور الإنسانى على الأرض. ثم أحس أن عليه كقسيس مسيحى كرس نفسه لهذا العمل أن يسعى للتوفيق بين اللاهوت المسيحى وفلسفته التطورية هذه... أن يربط وقائع التجربة الدينية بحقائق العلوم الطبيعية. وسوف تستحوذ هذه النقطة منا على قسط وافر من العناية والمناقشة فى الأجزاء التالية من مقالنا.

وكان بعد عودته إلى السربون قد حصل على الدكتوراه عام ١٩٢٢. وأصبح أستاذا للجيولوجيا بالمعهد الكاثوليكى بباريس حيث اجتذبت محاضراته أعدادا كبيرة من طلاب المعهد (ومن بين أولئك الطلاب ثلاثة يقومون بالتدريس الآن فى جامعة باريس). وفى عام ١٩٢٣ ذهب إلى الصين لمدة عام موفدا من المتحف فى بعثة حفريات يشرف عليها يسوعى آخر هو الأب ليسان Pére Lcent . ونشر بعدها «رسائل رحلة Lettres de voyage التى تحوى انطباعاته خلال الرحلة عبر المناطق الاستوائية، وبعد تجربته الأولى مع البحث الجيولوجى فى المناطق الصحراوية النائية فى منغوليا وشمال غربى الصين. وقد الهمته هذه البعثة تأليف كتابه: «القداس من أجل العالم La Messe sur le Monde وهو عمل ادبى وصفه هكسلى بالامتياز والأصالة وقال عنه أنه يتميز بطابعه الصوفى والواقعى، الدينى والفلسفى فى الوقت نفسه.

وكانت فى انتظاره لدى عودته إلى فرنسا بعد تلك البعثة العلمية صدمة اليمة. إذ صدر قرار بحرمانه من الاستمرار فى التدريس حيث اعتبر بعض رؤسائه الدينيين أن بعض الأفكار التى صرح بها خلال

محاضراته عن الخطيئة الأولى وعلاقتها بالتطور لا تتفق ورأى الدين. فعاد فى عام ١٩٢٦ إلى العمل مع الأب «ليسان» فى الصين حيث قدر له أن يظل هناك عشرين عاما اللهم بعض الرحلات القصيرة إلى فرنسا، والولايات المتحدة، والحبشة، والهند، وبورما، وجاوه. وقد عمل هناك مستشارا لمشروع المسح الجيولوجى للصين، وأقام فى البداية فى تين تسين Tientsin، ثم فى بكين بعد ذلك حيث التقى بعدد من كبار علماء الحفريات من دول مختلفة وزاملهم فى العمل. وشارك فى بعض البعثات العلمية مثل بعثة شركة سيتروين المعروفة باسم: Croisière Jaune . كما شارك فى بعثة دافيدسون بلاك التى اكتشفت جمجمة إنسان بكين الشهيرة.

وفى عام ١٩٣٨ عين مديرا لمعمل الدراسات العليا للجيولوجيا وعلم الحفريات القديمة فى باريس. إلا أن اندلاع الحرب العالمية الثانية منعه من العودة إلى فرنسا. ولا شك أن عزلته الاجبارية فى الصين خلال سنى الحرب الست - برغم ما كان فيها من ألم وضيق - قد خدمت عملية نموه الروحى الداخلى (كما عملت عزلة السجن فى المساعدة على انضاج تفكير وشخصية

نهرو وكثير غيره من الهنود). فقد أتاحت له فرصة الإطلاع الواسع والتأمل الحر، وساعدته في الوصول بفكره إلى درجة عالية من الأحكام.

ولا شك أن حرمان رؤساء الأب دو شاردان له من التدريس في فرنسا كان من سخريات القدر الطريفة. ذلك أن أفكاره عن التطور البشرى قد قادته إلى الصين وربطت ربطا وثيقا بينه وبين واحد من أهم الاكتشافات في هذا المجال (وأعنى اكتشاف إنسان بكين الذى تم عام ١٩٢٨)، ودفعته إلى توسيع وتدعيم «أفكاره الخطرة» هذه.

وقد قام طوال تلك الفترة بكتابة مقالات وكتب تناول فيها مختلف جوانب موضوع التطور والمضامين المرتبطة به. وقد بلغت هذه الآراء صورتها الكاملة في عام ١٩٣٨ عندما فرغ من كتابة مؤلفه الذى نحن بصدد عرضه الآن: «الظاهرة الأنسانية La phénomène humain ولكنه لم يفلح أبدا في الحصول على تصريح بنشر أى من مؤلفاته الرئيسية أو المثيرة للاشكالات. وقد سبب له هذا الوضع كثيرا من الضيق، إذ كان يؤمن برسالة معينة: ولكنه كان ملتزما التزاما مخلصا بنذر الطاعة

الذى كان قد نذره. كما كان من حيث عمله فائق النشاط طوال تلك الفترة التى قضاها في الصين. فقد أسهم بنصيب وافر في اثراء معلوماتنا عن ثقافات العصر الحجرى القديم في الصين والمناطق المتاخمة لها، وفى توضيح فهمنا العام لجيولوجيا الشرق الأقصى. وقد قادة هذا الاهتمام بالجيولوجيا على نطاق واسع إلى الاهتمام بالتطور الجيولوجى لقارات العالم: فقد كان يرى أن كل قارة من قارات العالم قد أسهمت اسهاما خاصا في عملية التطور البيولوجي. كما قام بدراسات باليونتولوجية (حفرية) هامة لتطور المجموعات الثديية المختلفة.

غير أن اتساع آفاق رؤيته جعله يضيق ذرعا بالافراط في التخصص، وبالحذر العلمى الذى يرفض الانتقال من الدراسة التفصيلية إلى القضايا التركيبية العامة. ونلاحظ هنا على وجه الخصوص أن تصوره للإنسانية كنتاج غير مكتمل بعد لعملية تطور سابق وعامل من عوامل تطور متميز لاحق جعله يضيق بما اعتبره ضيق أفق أولئك الأنثروبولوجيين الذين قصروا أنفسهم على دراسة البناء الجسمى للإنسان وتفاصيل

الحياة الاجتماعية البدائية. فقد كان يريد دراسة الظاهرة الإنسانية في مجموعها باعتبارها تطورا نفسيا اجتماعيا أسمى من التطور البيولوجي. وقد صادف قدرا ملحوظا من النجاح فى توجيه المؤسسات التى اتصل بها طبقا لهذه الخطوط الفكرية.

وبعد عودته إلى فرنسا عام ١٩٤٦ انغمس دو شاردان بشغف فائق فى الحياة الثقافية الأوروبية. ولكنه تعرض فى عام ١٩٤٧ لأزمة قلبية حادة، اضطر على أثرها إلى قضاء بضعة أشهر للنقاهة فى الريف. وقد حظر عليه رؤساؤه الدينيون بعد عودته إلى باريس الكتابة فى الموضوعات الفلسفية. كما منع فى عام ١٩٤٨ من ترشيح نفسه لكرسى الأستاذية فى «الكوليج دى فرانس» خلفا للأب برول Breuil على الرغم من أنه كان معروفا أن هذا المنصب ـ الذى يعتبر غاية ما يصبو إليه من مكانة أكاديمية ـ كان مفتوحا أمامه. إلا أنه ربما كانت أعنف ضربة وجهت إليه فى عام ١٩٥٠ حينما رفض في روما طلبه التصريح له بنشر كتابه «الجماعة الحيوانية البشرية» Le groupe zoologique humain (وهو عبارة عن إعادة صياغة لكتابنا هذا «الظاهرة الإنسانية»). وكنوع من التعويض له عن هذا الغبن أجيز

له أن يختار «عضوا بالمعهد»[٢] Membre de l'Institut كما كان قد أصبح عضوا مراسلا فى «أكاديمية العلوم»، وعضوا فى «جوقة الشرف»، ومديرا للبحوث فى «المركز القومى للبحوث العلمية».

وكان قد دعى فى عام ١٩٤٨ لزيارة الولايات المتحدة حيث اتصل لأول مرة بمؤسسة فينر جرين Wenner-Gren Foundation (أو مؤسسة فايكينج كما كانت تعرف آنذاك) التى تولت رعايته طوال السنوات الأربع الأخيرة من عمره. كما مولت مؤسسة فينر جرين علاوة على ذلك زيارتيه لجنوب أفريقيا حيث استطاع أن يدرس مباشرة الاكتشافات العظيمة التى قام بها كل من بروم Broom ودارت Dart عن «انسان جاوه الجنوبى» Austra Lopithecus أحد أسلاف الإنسان القريبين، وأن يضع خطة لتنسيق العمل فى المستقبل بين الدراسات الباليونتولوجية والأثرية فى هذا المجال، الذى يعتبر مركزا للتطور البشرى.

---

(٢) المقصود هنا «المعهد الفرنسى» ويتكون من الأكاديميات الفرنسية الخمس: الأكاديمية الفرنسية وأكاديمية التراث والآداب، وأكاديمية العلوم، وأكاديمية الفنون الجميلة، وأكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسية، وتضم جميعا حوالى مائتين وعشرين عضوا.

وفى عام ١٩٥١ كان وضعه فى فرنسا قد ازداد حرجا، فقرر الانتقال للاقامة فى نيويورك. وهناك لعب - من خلال مؤسسة فينر جرين - دورا هاما فى رسم سياسة البحوث الأنثروبولوجية الفيزيقية(٤) كما قدم اسهامات قيمة فى الحلقات الدراسية والمؤتمرات الدولية التى نظمتها تلك المؤسسة. وكان قد عاد قبيل عام ١٩٥٤ بوقت قصير إلى فرنسا لقضاء فترة وجيزة - ولكنها مثمرة ومفيدة - من المناقشات والحوار الخصب.

وقد عمل طوال تلك الفترة بنشاط جم فى تطوير أفكاره وإكسابها مزيدا من التحديد، فكتب ترجمته الذاتية الروحية: «قلب المادة» Le coeur de la matière والكتاب نصف المتخصص المعنون: «الجماعة الحيوانية البشرية» الذى سلفت الاشارة إليه، علاوة على عدد من المقالات ذات الطابع المتخصص والعام التى جمعت فيما بعد فى كتابيه: «رؤية الماضى» La vision du passé «وظهور الإنسان» L'apparition de l'homme .

---

(٤) يميز الانثروبولوجيون بوجه عام بين ثلاثة اقسام رئيسية للأنثروبولوجيا: الفيزيقية التى تدرس السمات الفيزيقية للأجناس البشرية، والاجتماعية التى تدرس البناء الاجتماعى للمجتمعات الإنسانية والثقافية التى تدرس الثقافة الإنسانية (بجوانبها المادية والروحية) والعمليات الثقافية.

وقد أمكن اقناعه بترك مخطوطات كتبه لدى أحد الأصدقاء، بحيث يمكن بذلك نشرها بعد وفاته، طالما أن التصريح بالنشر لا يطلب فقط إلا بالنسبة لمؤلف إنسان حى. ولابد أن احتمال نشر مؤلفاته هذا كان بمثابة عزاء كبير له فى هذا الجو المشحون. إذ من المؤكد أنه كان يعتبر كتاباته الفلسفية والعامة بمثابة حجر الزاوية من العمل الذى أنجزه طوال حياته، وكان يشعر أن واجبه الأسمى هو نشر ثمار عمله.

ثانياً : آراؤه العامة ومفاهيمه الأساسية :

ينطلق الأب بيير تايار دو شاردان من الاعتقاد بأن الإنسانية تمثل فى مجموعها وكليتها ظاهرة جديرة بالوصف والتحليل شأن أى ظاهرة أخرى. وهى وكل ظواهرها ـ بما فيها التاريخ البشرى والقيم البشرية ـ موضوعات صالحة للدراسة العلمية. (انظر صفحة ٣٩ من الكتاب).

أما النقطة الثانية عنده ـ والتى تفوق الأولى أهمية بكثير ـ فهى الضرورة المطلقة لاتخاذ وجهة نظر تطورية. وعلى الرغم من أنه قد يكون من المفيد ـ لبعض الأهداف المحدودة ـ النظر إلى الظواهر كأشياء معزولة ثابتة فى

الزمان؛ إلا أنها ليست في الواقع ثابتة على الاطلاق: فهي دائما عمليات ديناميـة أو أجزاء من عمليات ديناميـة. وتتكاتف مختلف فروع العلم لتوضح أن الوجود في كليته يجب أن يعتبر عملية دينامية واحدة هائلة الضخامة؛ عملية تحول للوصول إلى مستويات جديدة من الوجود والتنظيم يمكن أن نصفها بحق بأنها «نشوء» أو تطور. ولهذا يستخدم كلمات مثل «النشوء الإنساني العاقل» Noogenesis ليعنى التطور التدريجى للعقل أو السمات العقلية، ويؤكد مرارا أننا لا يجب أن نقول «علم الكونيات» (علم الكوزمولوجيا: علم يبحث فى أصل الكون وبنيته العامة وعناصره ونواميسه) وإنما علم «النشوء الكوني» Cosmogenesis. ويميل بالمثل إلى استخدام المصطلح الموجز المعبر «أنسنه» Hominisation ليدل على العملية التى أصبح بمقتضاها - ولازال يتحول - النوع البشرى الأصلى أكثر إنسانية حقيقية، العملية التى تتحقق فيها القوى الكامنة فى الأنسان وتصبح امكانياته فيها أكثر واقعية وظهوراً. والواقع أنه يوسع استخدام هذه المصطلحات التطورية إذ يحدثنا مثلا عن «فوق الأنسنة» ultra-hominisation ليعنى المرحلة المقبلة المتوقعة فى عملية التطور والتى يكون الإنسان قد بلغ

فيها من التسامى على نفسه ما يتطلب له اسما جديدا إلى حد ما، أو وضعا أكثر تميزا علي أى حال.

وقد دفعته هذه النظرة ـ بحق فعلا ـ إلى نتيجة لا مناص منها مؤداها أنه طالما أن الظواهر التطورية (ربما بما فيها طبعا الظاهرة الإنسانية) تمثل عمليات دينامية فإنها لا يمكن أبدا أن تقيم أو توصف حق وصفها على أساس أصولها وحدها أو استنادا إلى هذه الأصول أساسا. فهى يجب أن تعرف من خلال اتجاهها، والامكانيات الكامنة فيها (بما فى ذلك القيود المفروضة عليها بطبيعة الحال)، واتجاهات المستقبل التى يمكننا الاستدلال عليها. وهو يقتبس هنا رأى نيتشه بأن الإنسان لم يكتمل بعد، وأنه يجب أن يتجاوز أو يستكمل. ويتقدم به ذلك ليستنتج الخطوات اللازمة لتحقيق هذا الاستكمال.

والواقع أننا لا نستطيع أن نسبر فكر دو شاردان فى أغواره البعيدة دون أن نقترب اقترابا وثيقا من المفاهيم الأساسية التى استخدمها؛ سواء تلك التى بدأ هو بصكها أو استخدام بعض ما هو قائم منها بمدلول جديد محدد. ونحن بتغطية هذه المصطلحات نكون قد

أتينا فى الوقت نفسه على العناصر الأساسية والملامح العامة لتفكير دو شاردان.

ـ مجال الحياة الإنسانية العاقلة :

صك دو شاردان فى عام ١٩٢٥ مصطلح «مجال الحياة الإنسانية العاقلة» noosphere ليدل على مجال العقل كمقابل ـ أو على الأقل متفوق ـ على المجال البيولوجى أو مجال الحياة، وباعتباره عامل التحول المؤدى إلى «الأنسنة» (أو كما سماه السير جوليان هكسلى : «التطور النفسى الاجتماعى التقدمى» Progressive psychosocial evolution .

وربما أمكننا أن نأخذ على دو شاردان عدم تعريفه المصطلح بشكل أوضح. فهل يعنى بمصطلح noosphere مجرد النمط الكلى للكائنات الحية المفكرة (أى البشر)، وما تبذله من نشاط، بما فى ذلك أنماط العلاقات التى تنشأ بينها؛ أم أنه يعنى به: البيئة الخاصة التى يعيش فيها الإنسان، أى: أنساق الفكر المنظم ومنتجاتها التى يتحرك بينها الإنسان ويعيش فيها كما يعيش السمك ويتكاثر فى الأنهار والبحار؟

وهو يشير على صفحة ٢٠١ من كتاب الظاهرة الإنسانية إلى مجال الحياة الإنسانية العاقلة كراق جديد أو غشاء جديد على سطح الأرض. أو «كراق فكري» فوقي على الراق الحي للمجال البيولوجي Bio-sphere وراق المادة اللاعضوية غير الحي وهو Litho-sphere. ولكنه يسميه في صياغة مبكرة له عام ١٩٢٥ - في كتاب «رؤية الماضي» (صفحة ٩٢): «مجال التفكير، والابتكار الواعي، وتآلف الأرواح تآلفا محسوسا».

ولعله من الأفضل أن نقصر معنى مصطلح noo-sphere على المدلول الأول (التي أثبتنا ترجمته العربية هنا). أما المعني الثاني فيقترح هكسلي أن ندل عليه بمصطلح آخر مستقل مثل «نسق الحياة الإنسانية العاقلة» noosystem. ولكن مما لا شك فيه أن مصطلح «مجال الحياة الإنسانية العاقلة» تعبير مفيد يحفز إلى مزيد من التفكير والتأمل.

- التقارب

تستخدم كلمة «تقارب» Convergence في العادة للدلالة على ميل البشرية - خلال عملية تطورها - نحو فرض الاتجاهات الجاذبة على الاتجاهات الطاردة. وذلك

حتى لا يؤدى التباين الطارد إلى التفتت، وحتى يتم استيعاب نتائج التباين فى نمط منظم موحد. وقد ظهر التقارب البشرى لأول مرة على المستوى الوراثى أو البيولوجي: فبعد أن بدأ النوع الإنسانى العاقل فى التباين مكونا أجناسا متمايزة (أو أنواعا فرعية Subspe-ciesبالمعنى العلمى الدقيق)؛ عملت الهجرة والزواج المختلط على الحيلولة بين الرواد الأوائل وبين التشتت والتباعد، وأدت إلى امتزاج الأجناس البشرية بشكل متزايد. وكانت النتيجة أن أصبح الإنسان هو النوع الوحيد الذى نجح فى البقاء كمجموعة أو عدة أجناس متزاوجة، ولم يتفتت فى صورة عدد من المجموعات المنفصلة بيولوجيا كالطيور التى تكون حوالى ٨٥٠٠ نوعا، أو الحشرات التى يتجاوز عدد أجناسها نصف المليون.

ثم يبدأ التباين الثقافى الذى يحدث بعد ذلك فى خلق عدد من الوحدات النفسية الاجتماعية ذات الثقافات المختلفة. على أن هذه «الجماعات الفكرية لا يمكن أن تكون منفصلة عن بعضها انفصالا حادا متميزا كالانفصال الموجود فى الأنواع البيولوجية. ويمرور الوقت أدت العملية التى يعرفها الأنثروبولوجيون

باسم «الانتشار الثقافى» Cultural diffusion - والتى سهلتها الهجرة وتقدم وسائل الاتصال - إلى إسراع العملية المقابلة وهى «التقارب الثقافى»، ومن ثم نحو إتحاد جميع الأنواع البشرية فى جماعة واحدة متفاعلة الفكر قائمة على إطار واحد - موضوع ذاتيا - من الفكر (أو «نسق الحياة الإنسانية العاقلة noosystem).

ويمكننا أن نضيف أن الأب دو شاردان دل على وعيه بالخطر الناجم عن هذا الاتجاه، ألا وهو تحطيم النتائج القيمة للتنوع الثقافى، والانتهاء بنا إلى تماثل عادى رتيب بدلا من ذلك النوع الفنى والكفء من «التنوع فى إطار الوحدة» Variety-in-unity. ولعله لم يناقش الأهمية التطورية للتنوع الثقافى بأى قدر من التفصيل، بل قنع بالقول بأن الشرق والغرب يكمل أحدهما الآخر ثقافيا، وأن البشرية تحتاج إليهما معا من أجل المزيد من توليف العالم الفكرى وتوحيده. وربما دفعه إلى اتخاذ هذا الموقف اهتمامه العميق - بحق - بإرساء أسس وحدة عالمية شاملة للوعى البشرى كشرط ضرورى لا غناء عنه لأى تقدم حقيقى للانسانية فى المستقبل، وربما كذلك لأنه كان بطبعته - وبحكم ميله - أكثر اهتماما بالفكر العقلى والعلمى منه بالفنون.

وسنعود فى الفقرة الأخيرة من هذا المقال إلى طرح بعض التساؤلات عن مفهوم «التقارب والوحدة» عند دو شاردان.

- التعقد :

مفهوم التعقد Complexification الذى قدمه الأب بيير تايار قيم ومفيد، وان كان على شيء من الصعوبة، ستحاول التقليل منها فيما يلى. يتضمن هذا المفهوم قيام تنظيم متزايد الأحكام لعملية النشوء الكونى. ويتمثل هذا التنظيم فى الانتقال من الوحدات تحت الذرية Subatomic إلى الذرات، ومن الذرات إلى الجزيئات molecules غير العضوية ثم العضوية فيما بعد. ثم الانتقال بعد ذلك إلى الوحدات الحية الأولى تحت الخلوية subcellular أو مجموعات الجزيئات المتضاعفة ذاتيا، ثم إلى الخلايا، ثم إلى الأفراد المتعددة الخلايا، ثم إلى المتزويات Metazoa (الحيوانات ذوات الخلايا الكثيرة) ذوات الرؤوس والعقول، ثم إلى الإنسان البدائى، ثم إلى المجتمعات المتمدينة التى نعرفها فى عالم اليوم.

إلا أن هذه العملية تنطوى على ما هو أكثر من هذا. إذ يصف عملية التعقد بأنها ميل عام يشمل هذا الوجود بكل ما فيه. واصفا مادة هذا العالم بأنها «ملفوفة» أو «مطوية» على نفسها: enroulement organique sur soi-même وذلك محليا وفى كليتها. ويضيف إلى ذلك أن العملية مصحوبة بزيادة «توتر» الطاقة فى التنظيمات «الخلوية» Corpuscular (نسبة إلى الخلية أو الكريه) الناتجة عن ذلك، أو فى التركيبات المنفردة التى وصلت إلى درجات أعلى من تعقد التنظيم. ويقترح جوليان هكسلى أن نطلق على هذا المفهوم اسما أكثر تعبيرا وأوضح دلالة وهو «التكامل المتقارب» Convergent integration . وذلك بهدف تعريف تأثير عملية التعقد الذاتى هذه فى خدمة التقارب والتكامل.

ويرى الأب دو شاردان علاوة على هذا أن التعقد - عن طريق التكامل المتقارب - يؤدى إلى تكثيف النشاط العقلى الذاتى، أو بعبارة أخرى إلى تطور عقل متزايد الوعى باستمرار. وهو يرى لذلك أن الوعى الكامل (كما يبدو عند الإنسان) يمكن تعريفه بأنه: «الجهد الخاص للتعقد المنظم». ولكنه يستطرد قائلا ان الدراسة المقارنة توضح لنا أن الحيوانات العليا لها عقول من نوع معين،

وأن الحقيقة والمنطق التطورى يفرضان الاعتقاد بأن العقول لابد وأنها قد تطورت تدريجيا كالأجسام، وأن الخصائص العقلية لابد وأن تكون حالة فى جميع أجزاء الكون. هكذا يجب علينا - على أى حال - أن نستدل على وجود عقل كامن فى جميع الأنساق المادية إذا استقرأنا - عودا إلى الوراء - من المرحلة البشرية إلى المرحلة البيولوجية، ومن البيولوجية إلى اللاعضوية. وعلينا طبقا لما يراه الأب دو شاردان أن نعتبر تكثيف العقل - أى ارتفاع الطاقة العقلية الكامنة - نتيجة لأزمة للتعقد. ويتم ذلك عن طريق التكامل المتقارب لوحدات التنظيم المتزايدة التعقيد باستمرار.

- مفهوم الطاقة :

إلا أن تيار تفكيره يندفع بعد هذا لا يتوقف إذ يسعى نحو ربط تطور العقل بمفهوم الطاقة. وهو يرى أن هناك نوعين أو شكلين من أشكال الطاقة؛ أو ربما طريقتين تظهر لنا بهما وهما: الطاقة بالمعنى الفيزيائى (على نحو ما يفهمه رجل الفيزياء) وهى تلك التى يمكن قياسها وحسابها بالطرق الفيزيائية، ثم «الطاقة النفسية» Psychic energy التى تزداد مع تعقد الوحدات

المنظمة. وهنا يطرح جوليان هكسلى ضرورة البحث عن مصطلحات جديدة بعض الشيء فى هذا الميدان. وربما يناسب التعبير عن هذا النوع من الطاقة اسم «الطاقة العصبية» neurergyأو «الطاقة النفسية» psychergy . ومن الواضح تمام الوضوح أن هذا الرأى ينطوى على تأملات تتصف بجسارة فكرية فائقة، وان كان التأمل هنا مستخلصا من حشد ضخم من الحقائق التى خضعت لنوع من التنسيق والترتيب المنطقى فيما بينها. وخطورة هذا الرأى أنه نوع من الرؤية، برغم أنه نتاج نظر شامل ومتماسك.

ولعله من الأفضل القول بأن وجود نوع ما من التعقد يعتبر شرطا ضروريا للتطور العقلى وليس سببا له. وقد يرى بعض علماء البيولوجيا أن العقل يرجع فقط إلى تعقد بعض أنواع التنظيم، وأعنى المخ. ولكن السير جوليان هكسلى يعلق على هذا النوع من التفكير واصفا إياه بالضيق والمحدودية. ويعلمنا هنا أن المخ وحده ليس مسئولا عن العقل، علي الرغم من أنه يمثل عضوا ضروريا لظهوره. فالمخ المعزول ليس إلا قطعة من العبث البيولوجى شأنه شأن الفرد البشرى المنعزل، كلاهما لا معني له. ولذلك يحسن أن نقول أن العقل ينشأ من

خلال - أو ينشأ في - المادة الحية ذات التنظيم المعقد، القادرة على استقبال المعلومات من أنواع أو طرز متعددة عن أحداث في العالم الخارجي وفي داخل الذات، أو على تركيب ومعالجة تلك المعلومات في أشكال منظمة متباينة، وعلى الاستفادة منها في سلوك حاضر مباشر أو مستقبل. ويمكن أن نقول بعبارة أخرى ان العقل لا يوجد إلا عند الحيوانات العليا التي تتمتع بأعضاء الإحساس، والأعصاب، والمخ، والعضلات. وربما لا يمكن أن تنشأ فعلاً تنظيمات على تلك الدرجة من التعقيد إلا في مرحلة من مراحل التطور تمكنها فيها بنيتها من استيعاب معلومات خارجية متباينة. فمن المؤكد أنه لا توجد مادة غير حية وتنظيم غير متسق وصل إلى مثل هذه الدرجة من الأحكام أو ما هو قريب منها.

- التقارب والتعقد :

من المؤكد أن التقارب قد أدى في عملية التطور البشري أو النفسي الاجتماعي إلى زيادة درجة التعقد. ويرى الأب بيير تايار أن زيادة أعداد البشر بالإضافة إلى تحسن سبل الاتصال بينهم قد صهر جميع أجزاء

«مجال الحياة الإنسانية العاقلة noosphere» معا، وزاد من درجة التوتر الموجودة فيه، وجعله «يلتف» حول نفسه، ومن ثم يصبح على درجة أعلى من التنظيم. وقد زادت خلال عملية التقارب والاندماج ما يمكن أن نسميه درجة الحرارة النفسية الاجتماعية. وستحقق البشرية ككيان كلي واحد تبعا لذلك مزيدا من النشاط العقلى الأكثر تكثيفا وتعقيدا وتكاملا. الأمر الذى سيقود النوع البشرى إلى درجات أعلى فى سلم التقدم وصولا إلى مستويات أرفع من «الأنسنة» Hominisation .

وما من شك فى أن دو شاردان كان يتمتع ببصيرة نافذة. فقد أدرك بعين عقله أن «الحقيقة المألوفة عن كروية الأرض» - أى كروية بيئة الإنسان - قد أدت إلى تكثيف النشاط النفسى الاجتماعى على هذا النحو. ففى بيئة غير محدودة بأية حدود كان خليقا بفكر الإنسان - وما يترتب عليه من نشاط نفسى اجتماعى - أن يتوزع نحو الخارج ببساطة. حقيقة أنه كان سينتشر على نطاق واسع، ولكنه كان سيظل متفرقا أشد التفرق. أما إذا اقتصر على مجال محدود، فسوف تواجه الفكرة الفكرة، وستكون النتيجة هى الوصول إلى شبكة فكرية منظمة، أو نسق فكرى يعمل تحت ضغط عال. ومن ثم

يصبح قطعة من جهاز التطور قادراً على توليد طاقة نفسية اجتماعية عالية. وأنت حينما تقرأ مناقشته لهذا الموضوع، ترى بكل وضوح تلك الشبكة الانتخابية من الفكر الحى باعتبارها البناء الملزم للإنسان المتطور، والتى تميزه عن سائر الكون، ولكنها تيسر مع ذلك التبادل معها: اذ تلعب نفس الدور فى تحديد وحدة التطور البشرية ولكنها تساعد مع ذلك على زيادة تعقد مكوناتها، تماما كما يفعل الغشاء الخلوى بالنسبة للخلية الحيوانية.

وقد أدت نفس الرؤية الواضحة بالأب دو شاردان بعد ذلك بسنوات (كان ذلك فى جامعة كاليفورنيا عام ١٩٥٢) إلى تشبيه السيكلوترون Cyclotron (جهاز لتحطيم نوى الذرات يقوم بتوليد كميات هائلة من الطاقة المادية فى المدارات اللولبية الموجودة فى مجال قوته) بمجال الحياة الإنسانية العاقلة noosphere وأساس التشبيه هنا أن مجال الحياة الإنسانية العاقلة بالتفافه حول نفسه وتكثيف مجاله الفكرى يقوم بتوليد مستويات جديدة من «الطاقة النفسية».

ـ نقطة النهاية :

وقد نظر دو شاردان ـ مستلهما الماضى لرؤية المستقبل ـ إلى عملية التقارب البشرى على أنها متجهة نحو مرحلة نهائية. ولعل تسميته لهذه المرحلة باسم «نقطة النهاية» Omega Point راجعا إلى اعتقاده أنها تمثل مرحلة نهائية فعلا. وربما كان أجدر به أن يعتبرها مجرد حالة جديدة أو أسلوب من أساليب التنظيم، لا يستطيع الإنسان بخياله الراهن أن ينفذ إليه أو يجول فى آفاقه، وذلك على الرغم من أنه قد يكون فى وسع الحقائق العجيبة عن الإدراك فوق الحسى التى توصلت إليها دراسات التخاطر Parapsychlogy الحديثة أن تعطينا فكرة عن حالة أكثر بعدا .ويسمى دو شاردان هذه المرحلة نقطة النهاية فى مقابل نقطة البدء Alpha Point التى تمثل الجسيمات المادية الأولية وطاقاتها . وهو يرى أن هناك عاملين يتعاونان فى زيادة هذا التعقد الذى يشهده مجال الحياة الإنسانية العاقلة. وأول هذين العاملين هو زيادة المعلومات عن العالم الواسع، بدءا من المجرات والنجوم إلى المجتمعات البشرية والأفراد. والعامل الثانى هو زيادة الضغط النفسى الاجتماعى على سطح كوكبنا . ويترتب على العامل الأول أن مجال

الحياة الإنسانية العاقلة يستوعب باستمرار حقائق أكثر وأكثر عن الكون، بما في ذلك الحقائق الخاصة باتجاهه العام واتجاهاته عبر الزمان بحيث تكون بمثابة مرآة وعامل موجه في الوقت نفسه. أما العامل الآخر فيترتب عليه وصول نسق الفكر الإنسانى إلى درجات أعلى من التوحد والتكثف. وستكون النتيجة المشتركة للعاملين معا - في رأى دو شاردان - هى الوصول إلى نقطة النهاية التى يصل فيها مجال الحياة الإنسانية العاقلة إلى درجة عالية من التوحد ونوع من التنظيم «فوق الشخص».

وهنا نشير مع هكسلى إلى أن فكر دو شاردان لم يكن واضحا تمام الوضوح. اذ يبدو في بعض الأحيان أنه يساوى بين هذا النوع المقبل من التنظيم النفسى الاجتماعي فوق الشخصى بنوع من الألوهية الجديدة. فنجده مرة - على سبيل المثال - يسمى هذا الاتجاه: «النشوء المسيحى» Christogenesis. ويبدو لنا في مرة أخرى أنه لا يحتاط الاحتياط الكافى من أخطار تشخيص عناصر الواقع اللاشخصية. وفي بعض الأحيان يبدو أنه يحبذ اندماج التنوع البشرى الفردى في هذه الوحدة الجديدة. وما من شك في أن هناك

كثيرا من العلماء يجدون من المستحيل عليهم أن يوافقوه على طول الخط فى محاولته هذه التوفيق بين العناصر فوق الطبيعية في المسيحية وحقائق التطور ومضامينه، وهو ما سنعود إلى التعرض له فيما بعد.

- الشخصية :

المهم على أى حال هو أن مفهوم أسلوب التنظيم فوق الشخصى hyperpersonal قد ظهر عند دو شاردان نتيجة اقتناعه بالأهمية الكبرى للشخصية. فالإنسان المتطور ليس مجرد فرد على درجة عالية من الفردية. فقد اجتاز هذا الفرد عتبة الوعى بالذات إلى أسلوب جديد من الفكر، وقد توصل نتيجة لذلك إلى درجة معينة من التكامل الواعى: تكامل الذات مع العالم الخارجى المكون من الناس ومن الطبيعة، وتكامل عناصر الذات المنفصلة مع بعضها البعض. فهذا الإنسان المتطور شخص؛ أو كائن حى تسامى على الفردية فى الشخصية. ويمثل التوصل إلى إكتساب الشخصية عنصرا هاما من عناصر نجاح تطور الإنسان فى ماضيه وحاضره، وعلى ذلك يجب أن يكون التوصل إلى تحقيق ذلك بشكل كامل هدفا أساسيا من أهداف مستقبله التطورى.

ويمثل هذا الايمان بأهمية الشخصية فى تصوره للأشياء مسألة عقيدة عنده، ولكنها عقيدة قائمة على الدراسة العقلية والمعرفة العلمية. وقد حال هذا الاعتقاد بينه وبين تشويع مفهومه عن المبدأ المقدس الكامن فى الواقع بتحويله إلى اعتقاد غامض ولا معني له بوحدة الوجود Pantheism تماما كما حماه فهمه لعملية الواقع بأكملها كنسق من العلاقات المتداخلة وللبشرية كعنصر مساهم مساهمة فعالة فى هذه العملية؛ حماه من فقدان الطريق وسط فلوات الفردية والوجودية.

وقد أدرك دو شاردان أن ظهور الشخصية الإنسانية كان ذروة اتجاهين تطوريين رئيسيين هما: الاتجاه نحو مزيد من الفردية المتطرفة، والاتجاه نحو مزيد من الترابط الكثيف والتعاون مع الآخرين. فالأشخاص هم أفراد استطاعوا التسامي على مجرد فرديتهم العضوية فى مشاركتهم الشعورية.

* * *

ولا شك أن مـ ـهـمـه للطريقة التى تحولت بها الكائنات الحية إلى أفراد فى بادىء الأمر ثم اكتسبت شخصياتها بعد ذلك قد قاده إلى عدد من الآراء القيمة.

وتعتمد هذه العملية أساسا على تكون الراس. والمقصود بها: تميز الرأس باعتباره المنطقة من الجسم الأساسية فى عملية التوجيه، التى تتجه إلى الأمام، وتتضمن الحواس الرئيسية التي تمد الإنسان بمعلومات عن العالم الخارجي وكذلك عضو التنسيق الرئيسي أو المخ.

ويوضح دو شاردان بمقدرته الفذة على التشبيه المفيد أن عملية التطور على الأرض تتمثل نفسها الآن فى عملية اكتساب الرأس. فقبل ظهور الإنسان كانت الحياة تتكون من حشد هائل من الفروع المنفصلة، التى لا يربط بينها سوى نوع غير منظم من التكامل البيئى. فالنمو الأولى للبشرية إلى وحدة نفسية اجتماعية واحدة ذات نسق بشرى عقلى noosystem واحد أو ذخيرة مشتركة من الفكر يمد العملية التطورية بجذور الرأس. ولازال أمام أحفادنا أن ينظموا هذا النسق البشرى العقلى العام الشامل بشكل أكثر كفاءة، بحيث يمكن البشرية من فهم عملية التطور على الأرض بشكل أكمل وتوجيهها بكفاءة أكبر.

وقد سبق للعلامة جوليان هكسلى أن عبر - بشكل مستقل عن دو شاردان - عن شيء قريب من هذا عندما

قال: ان التطور قد أصبح أخيرا - عند الإنسان العلمى الحديث - واعيا بنفسه. وهو ما نجده عند الأب دو شاردان. إلا أن صياغة دو شاردان أكثر عمقا وأكثر خصوبة: اذ تعنى أن علينا أن نعتبر الإنسانية ذات الفكر المشترك المتفاعل كائنا حيا من نوع جديد، يتمثل مصيره فى تحقيق امكانيات جديدة لتطوير الحياة على هذا الكوكب. وعلى هذا ينبغى علينا أن نسعى من أجل تزويده بالميكانيزمات اللازمة للاضطلاع بهذا العبء. هذه الميكانيزمات هى: النظائر النفسية الاجتماعية للحواس، وأعضاء الاستجابة، وجهاز عصبى مركزى يقوم بمهمة التنسيق ذى مخ مسيطر. وينبغى أن يكون هدفنا هو اكساب صفة الشخصية تدريجيا للوحدة البشرية التطورية، أى تحويلها - على المستوى الجديد للفكر التعاونى المتفاعل - إلى شىء مساو للشخصية.

ثالثا : عرض محتويات الكتاب :

سوف نتصدى فيما يلى لمعالجة محتويات كتاب «الظاهرة الإنسانية» بهدف إبراز تلك الآراء والمفاهيم

العامة كما اتضحت فى الكتاب على وجه التحديد، مرجئين كما قلنا إيراد الملاحظات وأوجه النقد إلى الفقرة الرابعة والأخيرة من المقال(٥).

ونود قبل الدخول فى عرض محتويات الكتاب أن نشير إلى الصعوبة غير العادية لأسلوبه. وتتبدى هذه الصعوبة فيما يحاول صكه من مصطلحات جديدة يراها أنسب وأقدر على التعبير عن آرائه. وقد أشرنا فى الفقرة السابقة إلى بعض منها مثل «الأنسنة» Hominisation أو «مجال الحياة الإنسانية العاقلة» Noosphere وغيرهما. فهى مصطلحات جديدة تماما تحاول التعبير عن أفكار محددة بصورة معينة. وليس لهذا الوضع من

---

(٥) اعتمدنا فى عرض الكتاب على ترجمة إنجليزية دقيقة، صدرت تحت عنوان: «الظاهرة الإنسانية» The Phenomenon of Man عن دار : Collins Fontana Books

وليست هذه الطبعة هى أولى الطبعات الإنجليزية للكتاب، إذ سبق أن صدرت له طبعة عن دار كولينز وهارير فى لندن ونيويورك طبعت فى نيويورك عام ١٩٥٩. اما هذه الطبعة الشعبية فقد صدرت فى سلسلة «كتب فونتانا الدينية» لأول مرة عام ١٩٦٥. ثم أعيدت طباعته بعد ذلك ست مرات متوالية فى الفترة من ١٩٦٥ إلى ١٩٦٩. وهى الطبعة التى بين أيدينا. وقد صدرت هذه الطبعة بمقدمة ضافية للعلامة الإنجليزى السير جوليان هكسلى قدم بها المؤلف وفكره العام إلى راء الإنجليزية.

علاج سوى الوقوف على مضمون هذه المصطلحات كما أراد هو لها، حتى يستطيع القارئ متابعة أجزاء الكتاب. أما الوجه الآخر للصعوبة فيبدو في الكلمات المألوفة والمعروفة من قبل التي حاول أن يطوعها لأغراضه الخاصة، أي يستعملها استعمالا جديدا محددا، ككلامه عن «الداخل» the within و«الخارج» the without وما إلى ذلك. وهي جميعا تصبح أكثر اتضاحا مع تقدم الإنسان في قراءة الكتاب(٦).

وليس المقصود من هذه الملاحظة أن تقلل من قيمة الكتاب كعمل فكري ولكنها تنبه فقط إلى أن الوصول إلى فكر المؤلف عن طريق هذا الكتاب مرهون بالنفاذ أولا إلى حقيقة هذه المصطلحات.

---

(٦) وواضح أن هذه الصعوبات وغيرها مما يميز أسلوب الكاتب ليست اكتشافا خاصا بنا فقد نبه إليه مترجم الكتاب إلى الانجليزية (صفحتي ٩، ١٠ من الكتاب). وكذلك أشار جوليان هكسلي إلى تلك الحقيقة مرارا في مقدمة الكتاب (ص١١ إلى ص٣٠). وأخيرا في الفصل الذي كتبته عنه الدكتورة جوزفين وتوليش Josephine Wtulich في كتابه «نظرية علم الاجتماع» تأليف «نيقولا تيماشيف» الذي سبقت الإشارة إليه (صفحة ٥١٧ وما بعدها ما الترجمة العربية).

يقع الكتاب - في طبعة كتب الجيب التى بين أيدينا - في ٣١٢ صفحة. ويتكون من مقدمتين، أو مقدمة وتمهيد كما سنرى فيما بعد، أربعة كتب (أو أقسام رئيسية) يحوى كل منها ثلاثة فصول. فضلا عن خاتمة، وتذييل، وملحق، ثم كشاف في نهاية الكتاب.

* * *

للكتاب كما قلت مقدمتان، الأولى بمثابة تمهيد تناول فيه أساسا تحديده العام لموضوعه ومنهجه. فموضوع الكتاب هو: الإنسان فقط كظاهرة، والظاهرة الإنسانية في مجموعها وكليتها. أما عن المنهج فقد أكد على ضرورة تضافر العلم والفلسفة والدين في فهم هذه الظاهرة الإنسانية. ولكن دون أن يندمج ثلاثتها في نظرة واحدة أو أسلوب واحد. وإنما تتضافر بشرط تعدد النظرات وتعدد مستويات التناول.

ويحاول دو شاردان في هذا التمهيد أن يتمسح بالعلم متهربا من الفلسفة ومن اللاهوت، فيطلب من قارئه لكي يحسن فهم هذا الكتاب على الوجه السليم ألا يطالعه ككتاب في الميتافيزيقا أو كدراسة لاهوتية؛ وإنما كدراسة علمية خالصة (صفحة ٣١).

وعلى الرغم من أن المؤلف يبين بوضوح أن هذا الكتاب يدور حول الإنسان فقط كظاهرة، وإن كان يتناول كذلك الظاهرة الإنسانية فى مجموعها؛ إلا أنه قد أراد أن يقدم لنا مدخلا إلى تفسير العالم الذى نعيش فيه. فقد اختار الأنسان كمركز لهذا التفسير وهذا التحليل. وحاول أن يقيم حوله نظاما متماسكا يربط بين الأسلاف واللاحقين.

وهو لم يحاول فى هذا أن يكتشف نسقا للعلاقات الأونطولوجية والعلية بين عناصر هذا الكون، وإنما قانونا تجريبيا للتردد يمكن أن يعبر عن ظهور هذه العلاقات المتتابع عبر الزمن. إلا أن هناك وراء هذه التأملات العلمية الخالصة الأولية مكانا فسيحا للتأمل والتعليق سواء من جانب الفيلسوف أو رجل الدين. وقد تعمد طول الوقت المخاطرة بولوج هذا الميدان الخاص بجوهر الوجود.

يقول دو شاردان: «.. وأنا واثق كل الثقة أننى استطعت - على مستوى التجربة - أن أحدد بشىء من الدقة ملامح الحركة المترابطة تجاه الوحدة، وعينت الأماكن التى يمكن أن يهتم بها المفكرون الفلسفيون

والدينيون في متابعتهم للموضوع بالدراسة - وصولا إلى نظام أعلى وأسمى - لمعرفة ما يعترض الاستمرارية من عقبات.

«غير أن هذا الكتاب يتناول كذلك ظاهرة الإنسان في مجموعها. ودون أي تناقض مع ما قلت؛ فإن هذا الجانب هو الذي يجعل آرائي قد تبدو في صورة الفلسفة. والواقع أن البحوث العلمية قد أثبتت خلال الخمسين عاما الماضية بما لا يدع مجالا للشك أنه لا توجد واقعة في حالة عزلة تامة. وإنما كل خبرة - مهما تبدو درجة ذاتيتها - تتضمن حتما في مجموعة مركبة من الفروض بمجرد أن يحاول العالم التعبير عنها في صيغة معينة. ولكن على حين لا نكاد نلاحظ هذا الطابع الذاتي الخفيف للتفسير عندما يكون مجال الملاحظة محدوداً؛ فإن هذا الطابع سرعان ما يسيطر عمليا عندما يتسع مجال الرؤية ليشمل الكيان الكلي في مجموعة... فالعلم والفلسفة والدين لابد أن يتقاربوا كلما ازداد اقترابهم من الكل. وأنا أقول «يتقاربوا» عامدا، ولكن دون أن يندمجوا، ودون أن يتوقفوا لحظة واحدة - حتى النهاية - عن تطويق الواقع من زوايا مختلفة، وعلى مستويات مختلفة. ولتأخذ مثلا أي كتاب عن العالم

والكون مما ألفه كبار العلماء المحدثين مثل بوانكاريه Poincaré، أو اينتشتين، أوجينز Teams، وستجد أنه من المستحيل أن تحاول تقديم تفسير علمي عام للكون دون أن تعطى الانطباع بأنك تحاول تفسيره أعمق فأعمق. ولكن دقق النظر أكثر من هذا وسوف تجد أن هذه الـ «فوق الفيزياء» لم تصبح بعد ميتافيزيقا..» (صفحتا ٣١ ـ ٣٢).

* * *

أما المقدمة الثانية فهى المقدمة الحقيقية للكتاب، اختار لها «الرؤية» عنواناً. وقد أكد فيها على ضرورة وأهمية رؤية الإنسان لنفسه، باعتبارها جوهر الحياة وحقيقتها الأساسية. ثم أردف بملاحظة عرف سلفا أن القارىء سوف ينتبه إليها وهى الإحساس بذاتية العرض. فتناول مفهوم الموضوعية بشكله التقليدى المعروف فى العلوم، وعقب عليه، وحدد مشخصاته من وجهة نظره. وهو أمر متوقع ليس بالجديد علينا، فلكى يكون كل صاحب أيديولوجية منطقيا مع نفسه لابد أن يحدد لنفسه مفهوما خاصا للموضوعية. وذلك بأن يشكل أصلا فى امكانية قيام موضوعية مطلقة وإمكان اقتران النظرة الموضوعية والنظرة الذاتية فى المعالجة

العلمية. فعن هذا لطريق فقط يمكن أن يضفى على موقفه الأيديولوجى المنحاز صبغة موضوعية. وسنعود إلى تلك النقطة فى الفقرة الأخيرة.

يقول دو شاردان: «... لا حيلة لنا - ذاتيا - فى أن نكون مركز النظر فيما نقوم به من ملاحظة. وقد كان العلم يتخيل فى مرحلته الأولى الساذجة - ربما رغما عنه - أننا نستطيع أن نلاحظ الظواهر فى ذاتها، كما تحدث فى غيابنا. وشرع علماء الفيزياء والعلماء الطبيعيون بالذات يعملون وفقا لهذا المبدأ كما لو كانوا ينظرون من ذروة ارتفاع شاهق على عالم يستطيع وعيهم أن ينفذ إليه دون أن يذعن له أو يغيره. ولكنهم بدأوا يدركون الآن أنه حتى أكثر ملاحظاتهم موضوعية متأثرة - بالأشياء المألونة التى تبنوها عند بداية البحث وبأشكال الفكر والا چادات الفكرية التى اكتسبوها خلال سير البحث. بحيث أنهم لم يعودوا يستطيعون أن يحددوا عندما يبلغون نهاية تحليلاتهم - بأى قدر من اليقين - ما إذا كان البناء الذى شيدوه هو جوهر المادة التى كانوا يدرسونها، أم إنعكاسا لفكرهم الخاص. وهم يدركون فى نفس الوقت أنهم مرتبطون - نتيجة لاكتشافاتهم - جسما وروحا بشبكة العلاقات التى

يعتقدون أنهم ينشئونها على أشياء من الخارج؛ والواقع أنهم مرتبطون بشبكتهم هم الخاصة. وقد لجيولوجى كلمات التحول[٧] Metamorphism والتبالر[٨] endomorphism فالموضوع والذات يتزاوجان ويتبادلان التأثير فى أثناء الفعل المعرفى. ومن ثم أصبح على الإنسان من الآن فصاعدا شاء أم أبى أن يجد صورته مطبوعة على كل ما ينظر إليه». (صفحة ٣٦).

ويبرر دو شاردان بعد ذلك أهمية معرفة الإنسان لنفسه باعتباره مركز الكون. ويتساءل: هل أفلح الإنسان فى رؤية نفسه على هذا النحو فى تاريخه السابق؟ ان ذلك يتوقف على بعض الشروط الأساسية التى لابد من توفرها ليتسنى فهم الإنسان كظاهرة فهما سليما. ويقول فى ذلك:

«اعتبر الإنسان منذ فجر الوجود مرآة لنفسه. والواقع أنه لم يكن ينظر طوال عشرات القرون إلا إلى نفسه. ولكنه لم يبدأ مع ذلك إلا مؤخرا فى تبنى نظرة

---

(٧) التحول اصطلاح جيولوجى يعنى تغير بنية الصخر، ويدل بصفة خاصة على تغير شديد ناشىء عن الضغط والحرارة والماء ويفضى إلى حالة اشد احكاما وتبلرا.

(٨) تضمن بللوره فى بللوره من نوع آخر.

علمية إلى مكانته فى العالم الفيزيقى. ولا داعى للدهشة من هذا الاستيقاظ البطىء. وكثيرا ما يحدث أن يكون أكثر ما يستوقفنا فى الوجه هو أعصى الملامح جميعا على الفهم والادراك. وعلى الطفل أن يتعلم كيف يعزل الصور التى تضر بالعين الحديثة الانفتاح. ولكى يتوصل الإنسان إلى اكتشاف الإنسان ويدركه حق قدره يستلزم الأمر توفر مجموعة كاملة من الاحساسات التى يغطى اكتسابها التدريجى - كما سنوضح فيما بعد - ويبرز معالم التاريخ الكامل لصراعات العقل الإنسانى. وهذه الاحساسات هى:

الإحساس بالضخامة المكانية، فى الكبر والصغر، الذى يفكك ويعزل - داخل مجال دائرة مطلقة - مدارات الأشياء التى تعتصرنا من جميع الجهات.

والإحساس بالعمق، الذى يدفعنا دفعا جهيدا عبر سلسلات لا نهائية ومسافات زمانية لا تحدها حدود. والذى يؤدى نوع من البلادة الذهنية إلى تكثفه لنا باستمرار فى شريحة رقيقة من الماضى.

والإحساس بالعدد، الذى يستكشف ويدرك دون احجام أو تراجع التعدد المذهل للمادة أو للعناصر الحية المتضمنة فى أبسط عمليات التغير فى الوجود.

والإحساس بالتناسب الذى يسمح لنا إذا تمكنا منه من إدراك اختلاف المجال الفيزيقي الذى يفصل - سواء من حيث الايقاع أو البعد - الذرة عن السديم، أى المتناهى فى الصغر عن الشىء الضخم الكبير.

والإحساس بالنوعية أو بالجدة الذى يمكننا من أن نميز فى الطبيعة بعض مراحل الاكتمال والنمو المطلقة، دون أن نهدم الوحدة الفيزيقية للعالم.

والإحساس بالحركة القادرة على تمكيننا من ادراك التطورات التى لا تقاوم والخبيئة فى البطء المتناهى - أو الثورة المتطرفة الكامنة تحت قناع من الثبات - التى تدس نفسها مجددا فى قلب التكرار الرتيب لنفس الأشياء.

وأخيرا الإحساس بالعضوية الذى يستكشف الصلات الفيزيقية والوحدة البنائية الكامنة تحت التجاور السطحى لخطوط التتابع والوحدات الكلية.

فبدون هذه الخصائص اللازمة لتوضيح رؤيانا؛ سيظل الإنسان أمامنا مطلقا غير محدود، مهما بذلنا من جهد يمكننا من رؤيته. وبدون هذه الخصائص سيظل فى نظر عقول كثيرة مجرد شىء شارد غريب فى

عالم مفكك غير مترابط. أو على العكس من هذا: ما علينا إلا أن نخلص رؤيانا من الوهم الثلاثى الذى ينطوى على الاعتقاد بالصغر، والتعدد، والثبات: كى يحتل الإنسان فى يسر المكانة الرئسية التى نتنبأ له بها: ألا وهى ذروة النشوء البشرى الذى يمثل بدوره تتويجا للنشوء الكونى كله». (صفحتا ٣٧ - ٣٨).

بعد ذلك ينتقل إلى نقطة هامة أخرى يتناول فيها عبارة «الظاهرة الإنسانية» التى اختارها عنوانا للكتاب، وأسباب اختياره لهذه التسمية أو لهذه الصياغة بالذات.

يقول دو شاردان: «... نعم أنا أؤكد: الظاهرة الإنسانية».

فأنا لم أختر هذه العبارة عفوا، وإنما لاعتبارات ثلاث:

أولا: لأؤكد أن الإنسان يمثل - فى الطبيعة - حقيقة أصيلة تدخل على الأقل جزئيا فى نطاق الشروط والمناهج العلمية.

ثانيا : لأوضح أنه لا يوجد من بين جميع الحقائق الماثلة لمعرفتنا شىء أكثر تفردا أو أكثر وضوحا.

ثالثا : لأؤكد الطابع الخاص المتميز للدراسة التى أنا بصدد تقديمها..» (ص٣٩).

وفى النهاية يوجه المؤلف النقد إلى النظرة الضيقة التى ينظر بها الانثروبولوجيون الفيزيقيون أو غيرهم (كرجال القانون مثلا) إلى الإنسان، باعتبار انهم لا يساعدون بشكل كامل على فهم الظاهرة الإنسانية فى مجموعها. ويؤكد أن الوقت قد حان لندرك أن تفسير العالم سيظل غير مرض إلا إذا غطى باطن الأشياء كما يغطى ظاهرها: العقل والمادة فى الوقت نفسه. ويعدنا بأن الفيزياء الحقيقية هى التى ستصل بنا يوما إلى استيعاب الإنسان في كليته في صورة متماسكة من العالم.

ويعدنا بأن كتابه يمثل محاولة من هذا النوع.

* * *

بعد المقدمتين وما أنطوتا عليه من مواقف واتجاهات أساسية كان من المفيد لنا أن نعرض لها بشيء من التفصيل لأنها تلقى الضوء على خطة الكتاب وعلى أسلوب المعالجة؛ ننتقل إلى الكلام عن الكتب الأربعة (أو الأقسام الرئيسية) التى يتوزع إليها الكتاب.

يحمل الكتاب الأول عنوان «ما قبل الحياة»، والكتاب الثاني: «الحياة»، والثالث: «الفكر»، والرابع: «البقاء». ويبرر دو شاردان خطة الكتاب على هذا النحو فيما يلي: «... ان الإنسان لا يستطيع أن يرى نفسه منفصلا كل الانفصال عن الإنسانية، ولا هو يستطيع أن ينظر إلى الإنسانية منفصلة عن الحياة، ولا إلى الحياة مستقلة عن الكون.

ومن هنا نشأت الخطة الأساسية لهذا الكتاب بأقسامه الرئيسية الثلاث: ما قبل الحياة - ثم الحياة - ثم الفكر. وهى أحداث ثلاث ترسم فى الماضى وتحدد للمستقبل (أى البقاء) مسارا واحدا ومستمرا؛ وهو منحنى الظاهرة الإنسانية». (صفحة ٣٨).

الكتاب الأول : ما قبل الحياة :

يرى دو شاردان أن هناك - على المستوى العلمى - نزاعا لازال مستمرا بين الماديين والمؤمنين بالتفسير الروحى؛ بين الغائيين والحتميين. ورغم قضاء قرن كامل من النزاع على هذا الموضوع فلازال كل فريق منهما قابعا فى موقعه متمسكا بموقفه، يكيل لمناوئه مبررات تمسكه بهذا الموقف.

ويدلى هو برأيه الخاص فى هذا النزاع؛ وهنا يبدو لنا موقفه التوليفى الواضح الذى يميز نسقه الفكرى كله؛ فيقول: ان استمرار هذا النزاع لا يرجع فى الحقيقة إلى الصعوبة التى يجدها العقل البشرى فى التوفيق بين التناقضات الظاهرة فى الطبيعة - كالانتظام والحرية، أو الموت والخلود - بقدر ما يرجع إلى صعوبة اتفاق هاتين المدرستين الفكريتين المتصارعتين على أرضية مشتركة. فالماديون من ناحية يصرون على تناول الأشياء كما تتكون فقط من أفعال خارجية تربط بينها علاقات عابرة. بينما يصر أصحاب التفسير الروحى - من ناحية أخرى - على عدم تجاوز نوع من الاستبطان المتوحد لمكنون هذه الأفعال الصادرة عن الأشياء. فكلا الفريقين يحارب على مستويين مختلفين، ولذلك لا يلتقيان، إذ أن كلا منهما لا يرى من المشكلة سوى نصفها فقط.

والرأى عنده أن كلا الرأيين بحاجة إلى الاتحاد والترابط، وسوف يأتى عن قريب الوقت الذى يتحدان فيه فى نوع من الفينومينولوجيا أو الفيزياء العامة تأخذ فى اعتبارها الجانب الداخلى للأشياء وكذلك الجانب الخارجى للعالم سواء بسواء. وبدون هذا سيكون من

المستحيل علينا أن نغطى الظاهرة الكونية فى عموميتها وكليتها بتفسير واحد متماسك كذلك الذى يحاول العلم أن يقدمه.

وبناء على هذا الموقف العام قسم دوشاردان معالجة موضوع هذا الكتاب الأول - وهو المادة - إلى شقين (يقعان فى ثلاثة فصول) غطى فى أولهما خارج المادة فى صلاتها وفى أبعادها القابلة للقياس. وتناول فى الآخر هذه المادة نفسها من الداخل. فتناول المادة من الخارج فى الفصل الأول، ثم المادة من الداخل فى الفصل الثاني. وتناول فى الفصل الثالث الأرض من الخارج ومن الداخل.

الكتاب الثانى : الحياة :

سبق للمؤلف أن أبدى تحفظا هاما على طريقة عرضه لصور الإنسان قبل الحياة أو فى فجر الحياة وهو تحفظ يلقي لنا كثيرا من الضوء على مدى علميته التى أحسن الالتزام بها قبل أن يحلق فى آفاق الميتافيزيقا؛ كما أنه يوضح لنا وجهة نظره العامة إلى موضوع تصور أشكال الحياة الإنسانية الأولى.

يقول دو شاردان: «... أرجو من القارىء ألا يتوقع

منى أن أقدم له تفسيرا نهائيا للأشياء المطروحة هنا، ولا نسقا ميتافيزيقيا متكاملا. كما أننى لا أريد أن ينشأ أى سوء فهم حول درجة الواقعية التى أعزوها إلى مختلف أجزاء الفيلم الذى أعرضه. فعندما أحاول أن أصور العالم قبل فجر الحياة - أو الحياة فى العصور القديمة؛ لا أنسى أنه قد يكون هناك نوع من التناقض الكونى فى تصور الإنسان كمشاهد لتلك المراحل التى تسير سيرتها الطبيعية قبل ظهور الفكر على الأرض. فأنا لا أزعم أننى أصف تلك الأشياء كما كانت فعلا، وإنما كما ينبغى لنا أن نصورها لأنفسنا بحيث يمكن أن يكون العالم حقيقيا لنا فى هذه اللحظة. فما أصفه ليس هو الماضى فى حد ذاته، وأنما كما ينبغى أن يبدو لملاحظ جالس على ذروة متقدمة حيث شاء له التطور أن يجلس.فهذا فى رأى منهج مأمون ومتواضع، وان كان حقيقيا مع ذلك - كما سنرى فيما بعد - بأن يقدم لنا من خلال التماثل رؤى مدهشة للمستقبل». (صفحة ٣٩).

يبدو العالم المعدنى وعالم الحياة نوعين متنافرين من المخلوقات، ولكن ما أن نتعمق الأمر، وننفذ بنظرتنا إلى المستوى الميكروسكوبى، وبعده إلى الشىء المتناهى الصغر؛ حتى يبدوا لنا مختلفين عن ذلك تمام

الاختلاف. انهما يبدوان كتلة واحدة تنصهر ذاتيا بشكل تدريجي. فعند هذا العمق تذوى كل الاختلافات. وقد أدركنا لفترة طويلة من الزمن كم هو مستحيل أن نرسم خطا واضحا فاصلا بين ما هو حيواني وما هو نباتي على مستوى الكائن الوحيد الخلية. كما أنه لا يمكن الفصل القاطع بين البروتوبلازم «الحى» والبروتينات «الميتة» على مستوى مجموعات الجزئيات الفائقة الكبر. ومازلنا نستخدم كلمة «ميته» - كما يقول دو شاردان - للتعبير عن تلك المواد الأخيرة غير المصنفة. وهنا يتساءل: «ألم ننتبه بعد إلى أن هذه المواد لا يمكن أن تفهم إذا لم تكن تتمتع - فى أعماقها الداخلية - بنوع من النفسية الأولية؟». (صفحة ٨٥).

وهكذا لم يعد بوسعنا أن نحدد زمانيا نقطة صفر مطلقة - على عكس ما كان يفترض من قبل - لنشأة الحياة أكثر من تحديد نقطة الصفر لأى واقع تجريبى آخره فعلى المستوى الفينومينولوجي التجريبى لا يمكن لأى وجود ولكل من أجزائه المكونة إلا أن يكون له نفس الاستمرار الزمنى، الذى ليس له حد يحده من الوراء. وهكذا فإن كل شىء يتمدد ويضرب بجذوره إلى الماضى، إلى أبعد مما نستطيع أن نحدد. فليس هناك

شيء تم بشكل مباشر ليواجه هذا الشرط الأساسي من شروط معرفتنا.

على أن أدراكنا وتسليمنا أنه لابد وأن يكون لكل خلق جديد نشوء جنيني كوني Cosmic embryogenesis لا يتعارض بحال من الأحوال مع واقعية ميلاده التاريخي، أي ظهوره في تاريخ معين.

والمخرج الوحيد من هذا المأزق هو الأخذ بفكرة النقطة الحرجة. وهنا يقول دو شاردان: «عندما يحدث - في أي مجال - أن يتجاوز أي شيء حدا معينا فإن خصائصه، أو ظروفه، أو طبيعته تتغير فجأة. فالمنحنى يرجع إلى الوراء من جديد، والسطح يتقلص في نقطة، والشيء الصلب يتفكك، والسائل يغلي، والخلية الجنينية تنشطر، ويبرز الحدس فجأة على الأفكار المتراكمة... فالنقط الحرجة معروفة، هي قفزات من كل نوع على طريق التطور. فهذا هو السبيل الوحيد من الآن فصاعدا الذي يستطيع به العلم الكلام عن «الحالة الأولى». ولكنه ليس مع ذلك سبيلا حقيقيا». (صفحة ٨٦).

بعد ذلك ينتقل المؤلف إلى محاولة تحديد بداية الحياة، والظروف التي كانت فيها تلك البداية. فيقول:

«ظلت الأرض لمدة طويلة لا نستطيع أن نعين لها حدا - ولكننا نعرف أنها كانت هائلة - على درجة من البرودة التي سمحت لها بأن تكون على سطحها مجموعات من الجزئيات الكربونية، التى ربما كانت مغطاة بطبقة من الماء الذى بزغت منه الآثار الأولى لقارات المستقبل. وربما بدت الأرض لملاحظ مجهز حتى بأحدث أدوات البحث مجرد صحراء قاحلة لا حياة فيها. وربما لم تكن مياهها لتخلف أى أثر لذرات متحركة حتى على أكثر مرشحاتنا دقة وحساسية. وربما لم يكن أقوى ميكروسكوباتنا بقادر على أكثر من تسجيل تكوينات حافلة.

ويجب أن يكون قد حدث بعد فتره معينة - بعد انقضاء حقبة زمنية طويلة - أن بدأت نفس هذه المياه هنا وهناك تعج بمخلوقات دقيقة. ومن ذلك التكاثر الأول تزايدت المادة الحية بتلك الوفرة المحيرة، والتى بدأ تركيبها المعقد يكون آخر أغلفة كوكبنا، وأعنى المجال الحيوى the biosphere.

ولن يستطيع أى قدر من البحوث التاريخية أن يميط لنا اللثام عن تفاصيل هذه القصة. وما لم يستطع

علم الغد أن يعيد إجراء هذه العملية فى المعمل، فربما لن نستطيع العثور على أى أثر مادى لظهور الجسم الميكروسكوبى من الجزيئى، أو العضوى من الكيميائى، أو الحى مما قبل الحى ولكن هناك شىء واحد على الأقل مؤكد على أى حال: ان تحولا من هذا النوع يمكن أن يكون نتيجة عملية دينامية بسيطة مستمرة. وبالمقارنة مع كل ما نعرفه من الدراسة المقارنة لصور النمو الطبيعى المختلفة؛ يجب أن نفترض أنه حدث فى تلك اللحظة من التطور الأرضى وصول إلى النضج؛ أو إلى عتبة؛ إلى أزمة من الدرجة الأولى كانت إيذانا ببدء نظام جديد». (ص٨٦ - ٨٧).

بعد هذا يبدأ الكلام عن الخلية باعتبارها بداية الحياة إذا ما نظرنا إلى الوجود من الخارج ومن الناحية المادية. فيدرس الكائنات الحية الدقيقة والجزيئات الكبيرة، ثم يحلل فى براعة موضوع ثورة الخلية بشقيها: الثورة الخارجية، والثورة الداخلية ملتزما في كل هذا بالخط الفكرى الأساسى الذى نوهنا به فى الفقرة الثانية من هذا المقال.

ونود فيما يلى أن نعرض لنص الفقرة المعنونة «ثورة الخلية» the Cellular Revolution كنموذج لانتفاعه

بخبرته العلمية وحصيلته الواسعة من المعلومات فى تدعيم وتوضيح خطه الفكرى العام.

ثورة الخلية :

« (أ) الثورة الخارجية: تبدو لنا الأصالة الجوهرية للخلية - إذا ما نظرنا من وجهة خارجية؛ هى النظرة البيولوجية العادية - فى اكتشاف طريقة جديدة لتكتيل كمية أكبر من المادة في وحدة واحدة. وما من شك في أن هذا الاكتشاف قد أعد عبر مدة طويلة من الزمن خلال عملية تلمس الطريق المترددة التى ظهرت خلالها الجزيئات الكبرى تدريجيا. ولكن لهذا كله كان من المفاجيء والثورى إلى حد كبير أن تحقق مباشرة هذا النجاح المذهل فى العالم الطبيعى.

«ولازلنا حتى الآن أبعد من أن نكون قادرين على تعريف المبدأ الأساسى لتنظيم الخلية، على الرغم من أنها قد تكون هى الوضوح نفسه. غير أننا قد عرفنا ما فيه الكفاية مما يسمح لنا بتقدير التعقيد الزائد فى بنائها والثبات غير العادى فى نمطها الأساسى.

«أولا: التعقيد: تعلمنا الكيمياء أن بناء الخلية قائم على البروتين، ومواد نيتروجينية عضوية (أحماض

أمينية) ذات وزن جزيئى هائل (حتى ١٠٠٠٠ر١٠ وأكثر). وتكون هذه البـروتينات باتحـادها مـع الدهـون، والماء، والفوسفور وجميع أنواع الأملاح المعدنية (البوتاسيوم، والصـوديوم، والمغنسـيوم وبعض المركبات المعـدنيـة): تكون البروتوبلازم. وهو عبارة عن كيان اسفنجي مكون من عدد لا حصر له من الجسيمات التى تخضـع - كما يمكننا تقدير ذلك - لتأثير عوامل اللزوجة، والتناضح[٩] والحفز، وهى التى تميز المادة عندما تصل التجميعات الجزيئية إلى مرحلة متقدمة غير أن هذا ليس كل شيء. إذا يمكننا أن ننظر فى مـركـز هذا التـجـمع إلى نواة تحتوى على «كروموسومات» أمام خلفية «السيتوبلازم» المحيط بها. وربما تكون هـى نفسـهـا مكونة من خيوط دقيقة أو من شعيرات («ميتوكوندريا» Mitochondria). ومع تقدم قدرات الميكروسكوب وتقدمنـا فى استـخدام الصبغات تظهر لنا باستمرار عناصـر جديدة فى هذا البناء المركب (سواء فى الارتفاع أو العمق). فنحن نجد فى هذه الخلية عظمة التضاعف المتضمن عضويا داخل حد أدنى من المكان.

---

(٩) التناضح أو الازموزية: وهو عبارة عن تبادل يحصل بين سوائل مختلفة الكثافة ومفصولة بعضـها عن بعض بغشاء عضوى حتى يتجانس تركيبها

«نأتى بعد ذلك إلى النبات: كما سبق أن أوضحنا تظل الخلية فى جميع الأحوال مخلصة لنسها أساسا برغم كل التعديلات الممكنة اللامحدودة التى تطرأ على الموضوع الأساسى، وبرغم الكثرة الهائلة فى الأشكال المختلفة التى تتخذها فى الطبيعة. وإذا ما أمعنا النظر إليها ترددنا فى أن نقارنها بأى شىء آخر سواء فى عالم «الأشياء الحية» أو «عالم الأشياء غير الحية». ومع ذلك يبدو أن الخلايا تشبه بعضها بعضا أكثر من الجزيئات وأكثر من الحيوانات. ومعنا الحق فى أن نعتبرها أول الأشكال الحية. ولكن أليس من حقنا بنفس الدرجة أن نعتبرها ممثلة لحالة أخرى من حالات المادة... شىء أصيل فى نوعه كالأجسام الالكترونية، أو الذرية، أو البلورية، أو المتعددة الأجزاء؟ أو كنمط جديد من المادة لمرحلة جديدة من مراحل الكون؟

«فالشىء الذى لدينا فعلا فى هذه الخلية (التى تتميز فى الوقت نفسه بهذا التفرد، وهذا الاتساق وهذا التعقد) هو مادة الكون التى يتكرر ظهورها مرة أخرى بكل خصائصها المميزة. وكل ما فى الأمر أنها وصلت فى تلك المرحلة إلى درجة أعلى من التعقيد، ومن ثم

واصلت تقدمها ـ تحت نفس التأثير (إذا ما صح فرضنا العام) على خط التطور الداخلى، أعنى الشعور.

(ب) الثورة الداخلية: من المتفق عليه بشكل عام أننا يجب أن نفترض «بدء» الحياة النفسية فى العالم مع أول ظهور الحياة المنظمة، أو بمعنى آخر مع أول ظهور الخلية. وهكذا فأنا اتفق مع الآراء السائدة الآن وأساليب اثباتها عندما افترض حدوث خطوة حاسمة فى تقدم الشعور على الأرض فى تلك المرحلة الخاصة من مراحل التطور.

«ولكن لما كنت قد سلمت بوجود أصل أقدم بكثير (هو أصل أولى فى الواقع) لأول السمات المميزة للذاتية immanence (الشعورية أو العقلية) داخل المادة؛ فإنه يصبح من المحتم على أن أشرح الطريقة الخاصة التى تعدلت بها الطاقة الدخلية لتتفق مع التركيب الخارجى للوحدة الخلوية. وإذا كنا أضفنا فعلا على السلسه الطويلة من الذرات، ثم الجزيئات، ثم الجزيئات الكبرى أصولا غامضة سحيقة راجعة الى نشاط حر أولى؛ فلابد أن تكون ثورة الخلية قد اتضحت فى جانبها النفسى عن طريق التحول Metamorphosis وليس عن طريق بداية جديدة كل الجدة. ولكن كيف كان ذلك؟

كيف يجب علينا تصور الانتقال (ثم كيف يتسنى لنا أن نفسح مجالا لوجود انتقال) من ما قبل الشعور الكامن في صور ماقبل الحياة إلى الشعور - مهما كانت بدائيته - الخاص بأول المخلوقات الحية الحقيقية؟ هل هناك طرق متعددة للمخلوق لكي يكون لنفسه «داخلا»؟

«يجب أن أعترف بأنه ليس من اليسير توضيح هذه النقطة. ثم سيثور - فيما بعد في حالة الفكر - ضرورة وضع تعريف نفسي «للنقطة الحرجة الإنسانية»، ذلك أن عتبة التفكير تحمل في ذاتها شيئا محددا، ولأنه ليس أمامنا سوى أن نرجع إلى أعماق ذواتنا لنقيسها. وإذا ما أردنا - من ناحية أخرى - أن نقارن الخلية بسابقاتها؛ فإن الاستبطان فقط هو الذي يستطيع أن يعيننا عن طريق المماثلات المتكررة والضارية إلى أعماق بعيدة. ماذا نعرف عن «أنفس» الحيوانات، حتى تلك التي تعد أقربها جميعا لنا؟ لا شك أن علينا عند تلك المسافات إلى أسفل وإلى الخلف أن نسلم بغموض أفكارنا.

«إلا أننا قادرون - برغم هذا الغموض وهذا التقريب الهامشي - على تحديد ثلاث ملاحظات على

الأقل تكفى لكى تعين لنا بطريقة مفيدة ومتماسكة موضع يقظة الخلية على سلسلة التحولات النفسية التى مهدت لحلول الظاهرة الإنسانية على الأرض. وحتي لو سلمنا بأن هناك نوعا من الشعور الأولى قد سبق ظهور الحياة. فإن مثل هذه اليقظة أو القفزة (أ) يمكن أو على الأصح (ب) كان حتما أن تتم، وبذلك يكون لدينا (جـ) تفسير جزئى لواحد من أهم التجديدات الخارقة التى شهدها وجه الأرض تاريخيا.

«ويمكننا أولا أن نتصور تماما أنه يمكن أن يحدث انتقال جوهرى بين حالتين أو شكلين من أشكال الشعور، حتى على المستويات الدنيا. فإذا عدنا إلى الشك الذى سبق أن عبرنا عنه من قبل قلنا أنه كانت هناك عدة طرق للوصول إلى «الداخل». فالسطح المغلق الذى كان غير منتظم فى البداية يمكن أن يتمركز حول شيء معين. وتستطيع الدائرة أن تزيد من طريقة انتظامها وتصبح مجالا. ومن الممكن أما عن طريق ترتيب الأجزاء أو من خلال اكتساب بعد آخر أن تتفاوت دون شك درجة «دونية» عنصر كونى إلى الدرجة التى يرتقى منها فجأة إلى مستوى آخر.

«يترتب إذن على القانون الذى سلمنا به من قبل والذى ينظم العلاقات المتبادلة بين «داخل» the within الأشياء «وخارجها» the without أن مثل هذه الطفرة النفسية لابد وأن تكون قد صاحبت اكتشاف تعقد الخلية وانتظامها. وقد أوضحنا أن زيادة الحالة التركيبية للمادة ينطوى بالضرورة على زيادة مقابلة فى الوعى بالبيئة المركبة. والذى نود أن نضيفه إلى ذلك الآن هو أن: التغير الحرج فى ترتيب العناصر يؤدي بالفعل إلى تغيير فى طبيعة حالة وعى الجسيمات التى يتكون منها هذا العالم.

«ولنتجه الآن - فى ضوء تلك المبادئ العامة - إلى القاء نظرة أخرى على المنظر المذهل الذى يمثله تبرعم الحياة بشكل قاطع على سطح الأرض فيما مضى، وعلى الدفعة فى مجال التلقائية، وعلى الانطلاق الخصب للمخلوقات الغريبة، وعلى الامتداد غير المقيد والقفزة إلى اللا محتمل. ومن المؤكد أن انفجار الطاقة الداخلية المترتب على التنظيم الأساسى الرفيع للمادة المتناسب معه هو الحدث الذى يمكن أن تكون نظريتنا قد قادتنا إلى توقعه.

«فمثل هذا التحقق الخارجي لنمط جديد فى جوهره من تجمع الجسيمات، الذى يتيح وجود تنظيم أكثر لينا وأفضل تمركزا لعدد غير محدود من المواد، ويتيح فى نفس الوقت البداية الداخلية لنمط جديد من النشاط الشعورى والحتمية: هذا التحول المزدوج والحاسم يسمح لنا بتعريف عملية الانتقال الحرجة من الجزئى إلى الخلية - أى النقلة إلى الحياة». (ص٩٥ - ٩٩).

ننتقل الآن سريعا إلى الفصل الثانى من الباب الثانى المعنون: «نمو الحياة». هنا يشبه دو شاردان مهمة البيولوجى فى وصفه لتقدم الحياة بعمل الفيزيائى الذى يحاول دراسة تطور موجة معينة من الموجات. إذ يبدأ الفيزيائى فى تلك الحالة بحساب نبض جسيم واحد. ثم يعمد بعد ذلك إلى تخفيض وسيط التردد إلى خصائصه الرئيسية واتجاهات المرونة. وأخيرا يعمم النتائج التى توصل إليها بالنسبة لذلك العنصر. فيحصل بذلك على صورة كلية تقترب بقدر الامكان من حركة الكل الذى يحاول وصفه.

كذلك الحال بالنسبة للبيولوجى عندما يواجه مهمة وصف أصل الحياة، اذ يتحتم عليه أن يسلك سبيلا

قريبا من ذلك. فمن المستحيل تخفيض هذه الظاهرة الهائلة والمعقدة دون الاتجاه أولا إلى تحليل العمليات التى اكتشفتها الحياة لتقدم كل عنصر من عناصرها على حدة.

ويقدم لنا دو شاردان عرضا مبسطا لتطور الحياة على الأرض، يقسمه إلى ثلاثة أقسام هى:

(أ) الحركات الأولية للحياة: ويعالج فيها موضوعات التكاثر، والتضاعف، والتجديد، والاقتران، والاتحاد، والقابلية للاضافة بشكل منضبط.

(ب) تشعب الكتلة الحية: ويعالج فيها موضوعات كليات النمو، وازدهار النضج، وآثار المسافة.

(جـ) شجرة الحياة: وتنقسم إلى موضوعات الخطوط الرئيسية، والأبعاد، والبرهان.

وهو فى كل هذا يدرس الموضوع من على السطح أو «من الخارج» ـ على حد تعبيره ـ مرجئاً ملاحظة «الداخل» إلى الفصل القادم.ويقول المؤلف عن معالجته للموضوع فى هذا الفصل: «اننى لن أقدم تفاصيل فرعية ولا براهين، وإنما كل ما سأقدمه منظورا قد يراه القارئ، ويقره ـ وقد لا يراه».. (صفحة ١١٤).

أمـــا الفـــصل الثـــالث والأخـيــر من هذا البـــاب فموضوعه كما سبق أن وعدنا المؤلف هو استعراض عملية نمو الحياة؛ ولكن «من الداخل» وهو يسعى بذلك إلى مــحاولة الوقوف على «دافع» أو «مــحرك» مـعين لعملية النمو هذه، وكذلك عن «الوجـهة» التى تتخذها. فـالحيـاة تجمع فى البـروتوبلازم خـصـائص فـوق خصائص باستمرار. ومن ثم تصبح أكثر تعقيدا بمرور الزمن. ولكن إذا نظرنا إليها ككل واحد تساءلنا: ترى ما هو معنى هذه الحركة أو هذا النمو؟

لم يعد بين العلماء أدنى خلاف حول حقيقة تطور الحيـاة، ولكن التسـاؤل هنا عمـا إذا كـان هذا التطور موجها نحو وجهة معينة أم لا. هذا السؤال هو الذى يحاول دو شاردان الاجابة عليه على صفحات هذا الفصل من خلال استعراض نشأة الشعور الإنسانى وهو موقن تماما أن هناك وجهة محددة لتطور الحياة، وأن هناك خطا واضحا للتقدم. وهو يعتقد أن هذا الخط وهذه الوجهة من الوضوح والتحديد بحيث أن علم الغد سوف يتكفل بالقطع باثبات وجودهما. ومن ثم يحاول أن يقدم لنا براهين أولية على ذلك.

الكتاب الثالث : الفكر :

يريد المؤلف أن يدلل فى الفـــصل الأول من هذا الباب المعنون: «مولد الفكر» على أن أى محاولة لتعيين الموضع الطبيعى للإنسان فى العالم تفرض علينا أن نأخذ فى اعتبارنا داخل الأشياء كما نهتم بخارجها سواء بسواء.

فالإنسان من وجهة النظر الوضعية البحتة أكثر الأشياء التى يواجهها العلم غموضا واثارة للقلق والارتباك. والحقيقة أن العلم قد فشل حتى الآن - فى رأى المؤلف - فى أن يعثر له على مكان صحيح فى تصوراته التى يقدمها للعالم. فقد نجحت الفيزياء فى وصف عالم الذرة؛ واستطاعت البيولوجيا أن تضفى نوعا من النظام على صور الحياة المختلفة؛ ثم تسعى الانثروبولوجيا الفيزيقية جاهدة بمعونة كل من الفيزياء والأحياء إلى بذل أقصى ما تستطيع لتفسير بنية الجسم الإنسانى وبعض ميكانيزماته الفزيلوجية. ولكن ما أن نضع كل هذه الملامح إلى جانب بعضها حتى تبدو الصورة مفتقرة إلى العنصر الواقعى المقنع. فالإنسان كما يصفه العلم اليوم حيوان شأن سائر الحيوانات الأخرى، ولكن أليس الاعتماد على النتائج

البيولوجية وحدها فى تفسير ظهوره إلى الحياة شيئا يفارق الواقع كل المفارقة؟

لقد كانت القفزة كما يبين دوشاردان بسيطة غاية البساطة من الناحية المورفولوجية. ولكنها صاحبت مع ذلك ثورة هائلة لا تصدق فى مجالات الحياة. وهنا يكمن التناقض الإنسانى بأكمله.وهنا يكمن أيضا الدليل على أن العلم - بتصويره الراهن للعالم - يتجاهل عاملا جوهريا، أو على الأقل بعدا بأكمله من أبعاد هذا الكون.

ومن هذه المقدمة يقفز دوشاردان مباشرة وباتساق منطقى مع مقدماته إلى أن محاولة تعيين الموضوع الطبيعى للإنسان فى عالم الواقع تتطلب مراعاة كافية لداخل الأشياء ولخارجها على السواء. وهو يذكرنا هنا بأن هذا المنهج قد مكننا حتى الآن من أن نقدر عظمة حركة الحياة والوجهة التى تتخذها. وهى التى ستمكننا هنا من أن نوفق بين اعتيادية الظاهرة الإنسانية من ناحية وأهميتها العظمى من ناحية أخرى.

ومن ثم يحاول أن يجيب على التساؤل الكبير التالى: ماذا حدث فى الفترة بين المرحلة الأخيرة من

العصر البليوسيني (العصر الحديث القريب) - التي لم يكن الإنسان قد ظهر فيها بعد - والمرحلة التالية عليها التي عثر فيها الجيولوجي على أول أنواع رقائق الصوان التي هذبتها يد الإنسان؟ وما هو المدى الحقيقي لهذه القفزة؟

فهذا الباب (أو الكتاب الثالث) عن الفكر هو المقدمة الطبيعية السابقة على الدخول في الحقبة الفكرية التي يعيش فيها الإنسان المعاصر، والتي يطرحها للمناقشة في الكتاب الرابع.

الكتاب الرابع: البقاء :

أما الكتاب الرابع فيخصصه المؤلف للكلام عن أبرز المشكلات التي تعترض إنسان اليوم، شارحا في أكثر من موضع وبدرجات متفاوتة من التفصيل والأصالة بعض المفاهيم الأساسية. فيتحدث في بداية الباب عن خطر العزلة الذي يتعرض له الإنسان الأوروبي الحديث، كي يهرب من الآخرين، ومن المجموع الكبير. ثم يتناول في الفصل الأول بعنوان «المسألة الجمعية» مشكلات تقارب الفكر، والاندماج الفكري القهري في عالم اليوم. ثم مفاهيم كالإنسانية والعلم،

والاجماع بمفهومه وشكله الذى نعرفه به ونمارسه فى حياتنا المعاصرة. ثم يعرج بعد ذلك على بعض الموضوعات ذات الصبغة الميتافيزيقية ليقدم لنا مفاهيم «نقطة النهاية» وغيرها مما سبق أن تناولناه بالحديث فى الفقرة السابقة. ولكنه يعرض علينا علاوة على تلك المفاهيم آراء ومواقف نراها نحن ذات أهمية كبيرة فى نسقه الفكرى، ففيها تكمن طرافة الكتاب، وربما بسببها ظهرت كل هذه الطبقات والترجمات المتكررة والعديدة لكتاب «الظاهرة الإنسانية». ونكتفى فيما يلى بايراد ترجمة لفقرة لها أهميتها فى القاء الضوء على واحد من تلك المواقف الأساسية، وهى عن: «العلاقة بين العلم والدين».

تزاوج العلم والدين:

«يبدو العالم الحديث فى مظهره الخارجى متوالدا عن حركة ضد دينية: فقد أصبح الإنسان مكتفيا بنفسه، وأخذ العقل يحل محل العقيدة. وقد سمع جيلنا - والجيلان اللذان سبقاه - الكثير عن الصراع بين العلم والعقيدة. وقد بدا بالفعل فجأة من النتائج المحتومة أن العلم قد حل محل العقيدة وانتهى الأمر.

«ولكن من الواضح - ازاء استمرار هذا التوتر - أننا بحاجة إلى حل هذا الصراع على أساس شكل جديد كل الجدة من أشكال التوازن - لا يقوم على استبعاد أحدهما، ولا قبول الثنائية، وإنما التركيب والمزج بينهما. ولم يستطع لا العلم ولا الدين - بعد قراية قرنين من الصراع المحتدم - فضح خصمه. بل بات من البين - على العكس من ذلك - أن أحدهما لا يستطيع أن يتطور تطورا طبيعيا بدون الآخر. والسبب فى ذلك واضح بسيط: أن الحياة التى تدب فى كليهما واحدة. فلا يستطيع العلم - فى دوافعه أو انجازاته - أن يبلغ مداه دون أن يشوبه شيء من التصوف وأن يلتزم بالعقيدة.

«أولا من حيث دوافعه: وقد لمسنا هذه النقطة لمسا خفيفا عند تناولنا مشكلة الفعل. فالإنسان لا يريد سوى أن يستمر فى العمل والبحث طالما كان مدفوعا بمصلحة انفعالية. غير أن هذه المصلحة تعتمد اعتمادا كاملا على الاقتناع - الذى يعتبر بالمعنى الدقيق غير قابل للتفسير من وجهة نظر العلم - بأن العالم يأخذ فى سيره وجهة معينة، وأنه يمكن - والواقع أنه ينبغى إذا أحسنا

الاعتقاد - أن يؤدى إلى نوع من الكمال غير القابل للارتداد ومن ثم يبرز دور العقيدة ويتضح.

«ثانيا من حيث بنيانه: يمكننا أن نتخيل من الناحية العلمية تقدما تكاد لا تحده حدود فى الكائن الحى البشرى وفى المجتمع الإنسانى. ولكن ما أن نحاول وضع أحلامنا موضع التنفيذ، حتى ندرك أن المشكلة لا تزال غامضة غير محددة بل وغير ممكنة الحل دون أن نسلم - عن طريق نوع من الحدس فوق العقلى - بالخصائص المتقاربة للعالم الذى ننتمى إليه. ومن ثم يأتى دور الإيمان بالوحدة.

«ثم فضلا عن هذا إذا اخترنا - تحت ضغط الحقائق - جانب التفاؤل بالوحدة؛ فسوف نجد أنفسنا منقادين للضرورة الفنية باكتشاف (علاوة على الدافع اللازم لحثنا على التقدم، وبالإضافة إلى الهدف الخاص الذى ينبغى أن يوجه مسيرتنا) الرابطة أو اللاصق الخاص الذى يجمع حياتنا معا بشكل حيوى دون أن ينتقص منها أو يعرضها للتشويه. ومن ثم يأتى دور الإيمان بمركز ذى قدرة فائقة على الجذب يتميز بشخصية مستقلة.

«ونقول باختصار: ما أن يتجاوز العلم البحوث التحليلية التى تكون أدنى مراحله وأكثرها أولية، وينتقل إلى مستوى القضايا التركيبية ـ القضايا التى تبلغ ذروتها عادة فى ادراك حالة عليا على نحو ما للإنسانية حتى يجد نفسه قد انقاد فى الوقت ذاته إلى رؤية المستقبل والكل والمراهنة عليهما بكل شىء. وهو بذلك يتجاوز ذاته ويأخذ صورة قائمة على اساس الاختيار والعبادة.

«وهكذا نجد أن رينان ومفكرى القرن التاسع عشر لم يخطئوا بالكلام عن «دين العلم». ولم تكن غلطتهم أنهم رأوا أن عبادتهم للإنسانية تنطوى على إعادة التكامل ـ فى شكل جديد ـ بين تلك القوى الروحية البحتة التى اعتقدوا أنهم قد تخلصوا منها.

«وربما يدخل عملنا فى مجال العلم البحت عندما نتأمل فى العالم المتحرك ـ الذى انتبهنا إليه لتونا ـ الحلقات الزمانية والمكانية التى تنوع وتنمى نفسها حولنا وخلفنا، مثل صفيحة كوز الصنوبر[١٠]. أما عندما

(١٠) الصفيحة هى نص الورقة أو الجزء العريض المنبسط منها.

نتجه نحو القمة، نحو الكل والمستقبل، فلا حيلة لنا فى الاشتغال بالدين والدخول فى مجاله.

«فـــالدين والعلم همـــا الوجـــهـــان أو الطوران المتزاوجان لنفس الفعل المعرفى الكامل.. الفعل الوحيد الذى يستطيع أن يستوعب ماضى التطور ومستقبله بتأملهما، وقياسهما والوصول بهما إلى منتهاهما.

«وعلى الروح الإنسانية فى تدعميها المتبادل لهاتين القوتين ـ اللتين لازالتا متعارضتين ـ فى المزاوجة بين العقل والتصوف؛ عليها بحكم طبيعة تطورها أن تتوصل إلى أعلى درجة من القدرة على النفاذ بأقصى قدرة حيوية لديها». (صفحات ٢١١ ـ ٣١٣).

رابعا : دوشاردان فى الميزان :

ان كتاب «الظاهرة الإنسانية» الذى بين أيدينا قد أصبح بالفعل واحدا من أبرز الأعمال التى ستكون لها آثارها على فكر أبناء النصف الثانى من القـــرن العشرين. ونحن نقرر هذه الحقيقة رغم ما بيننا وبين المؤلف من نقاط خلاف أساسية سوف نشير إلى طرف منها فيما بعد.

وتكمن الأهمية الكبرى لهذا العمل العظيم فى محاولته ربط المعرفة العلمية الواسعة بالإحساس الدينى العميق، والالتزام الصارم بالقيم. ان دو شاردان يريد بكتابه هذا أن يحمل رجال الدين على أن يتأملوا أفكارهم من خلال منظور التطور الجديد، وأن يحمل العلماء على أن يروا المضامين الروحية لمعرفتهم. إنه يريد أن يؤكد لنا أنه لم يعد من الممكن بعد - فى ضوء الفهم الجديد الذى يقدمه للواقع - الاصرار على أنه لابد للعلم والدين أن يعملا كقسمين مستقلين من أقسام الفكر أو يختصا بقطاعين منفصلين من قطاعات الحياة. فهما جميعا وثيقا الصلة بالوجود الإنسانى ككل. ولم يعد بمقدور الإنسان ذى التفكير الدينى أن يدير ظهره للعالم الطبيعى، أو يبحث عن مهرب مما يعج به هذا العالم من شرور ومشكلات فى عالم غيبى. كما لم يعد بوسع الإنسان ذى التفكير المادى أن ينكر أهمية التجربة الروحية والشعور الدينى.

والحقيقة أننا نود قبل أن نوجه انتقاداتنا إلى موقفه أن نجمل عرض اسهامه الذى أراد أن يقنعنا به طوال الكتاب.

لقد ساعدنا دو شاردان فى التعرف بشكل أكمل وأدق ـ ما فى ذلك شك ـ على طبيعتنا الخاصة، وعلى العملية التطورية العامة، ومكاننا منها ودورنا فيها. فتعريف هذه الأمور على هذا النحو جعل تطور الحياة ظاهرة أوضح وأكثر قابلية للفهم. فهى تؤدى بنا إلى نشاط عقلى أو شعور أكثر تنوعا، وأشد كثافة، وذى درجات أعلى وأعقد من التنظيم. فخلال التطور يصبح الشعور (أو قل ان شئت القدرات العقلية للمادة الحية) أكثر أهمية للكائنات الحية. حتى يصبح لدى البشر أكثر خصائص الحياة أهمية على الاطلاق، ومن ثم يحوز النوع الإنسانى مركزه المسيطر على سائر الكائنات.

وبعد اجتياز هذه النقطة الحرجة يتخذ التطور طابعا جديدا: اذ يصبح عملية نفسية اجتماعية بالدرجة الأولى، معتمدا على النقل التراكمى للتجربة الإنسانية ونتائجها، وفعالا من خلال نسق منظم من الوعى مكون من التأثير المترابط للمعرفة، والشعور، والإرادة. وقد أصبح التطور عند الإنسان يتميز ـ على الأقل خلال الحقب التاريخية ـ بالتغير الثقافى أكثر من التغير الوراثى أو البيولوجى.

وعلى هذا المستوى النفسي الجديد تقودنا العملية التطورية إلى أنماط جـديدة وإلى درجـات أعلى من التنظيم. فهناك من ناحية نماذج جديدة من التعاون بين الأفراد: تعاون من أجل الضبط العملي، والاستمتاع، والتربية، والوصول إلى معارف جديدة (كما بدا ذلك أساساً فى القرون القليلة الماضية). ثم هناك من ناحية أخرى نماذج جـديدة من الفكر، وتنظيمات جـديدة للشعور وما ينتج عنه.

وقد أمكن نتيجة لهذا تحقيق امكانيات جديدة لم تكن فى أغلب الأحيان متوقعة أو محتملة على الإطلاق، وازدادت درجة تحقيق الإنسان لنفسه ويمكننا الأب تايار دو شاردان فى كتابه هذا من رؤية الامكانيات المرغوب الافادة منها فى المدى الطويل. وقد ساعدنا فضلا عن هذا فى تعريف شروط التقدم؛ تلك الشروط التى سوف تتيح زيادة امكانية تحقيق الإنسان لذاته، وتمنع الوقوع فريسة لمزيد من الفشل والحباط. وتلك هى شروط التقدم فى رأيه:

(أ) وحدة عالمية شاملة للتنظيم العقلى البشرى أو نسق الشعور. ولكن مع الحفاظ على درجة عالية من التباين داخل تلك الوحدة!!

(ب) الحب والنية الطيبة والتعاون الكامل.

(جـ) التكامل على المستوى الشخصى وتحقيق التناغم الداخلى.

(د) تزايد المعرفة ونموها باستمرار.

والمعرفة فى رأيه ركن ركين فى تصوره للحاضر والمستقبل... المعرفة هى التى تمكننا من فهم العالم ومن فهم أنفسنا، ومن ممارسة شىء من الضبط أو التوجيه. إنها هى التى تضعنا فى علاقة مثمرة وفعالة مع العمليات الدائرة فى هذا الكون. وهى تقدم لنا فضلا عن هذا حافزا مفيدا بكشفها عن امكانيات تحقيق الإنسان لذاته التى لازالت مجهولة بعد.

فنحن البشر تنطوى فى داخلنا على امكانيات المستقبل الهائلة لحياتنا على الأرض. ونستطيع أن نحقق المزيد منها شريطة أن نزيد من معارفنا ومن حبنا. تلك هى خلاصة ما يريد أن يقوله لنا الأب بيير تايار دو شاردان صاحب كتاب «الظاهرة الإنسانية».

ونحن مع عميق تقديرنا لهذه القيم الرفيعة والغايات النبيلة التى يريد أن يأخذ بيدنا إلى تحقيقها نرى بكل وضوح أنها لا تخلو من بعض المغالطات، ومن

قليل من النتائج الخاطئة التي قادته إليها مقدمات خاطئة.

نبدأ تفصيل ذلك بالاشارة إلى نسقه الفكرى التطورى بصفة عامة. ولا يتوقع القارىء منا بطبيعة الحال أن نقدم شيئا جديدا فى نقد الفكر التطورى، فكتب الفكر الاجتماعى - وغير الاجتماعى - تعج بالكثير البليغ فى هذا الصدد. ومع أن هناك ملاحظات نقدية كثيرة يمكن أن يقدمها عالم الوراثة إلى معالجة دو شاردان (من هذا مثلا: أنه لم يول الاهتمام الكافى لعلم الوراثة وامكانيات الانتخاب الطبيعى وحدوده)، وأخرى من جانب عالم اللاهوت (من هذا مثلا: اختلافه مع المفهوم الدينى الرسمى حول الخطيئة وغيرها، مما كان سببا في حجب كتبه عن الظهور طوال حياته)؛ مع هذا فلسنا نود أن نخوض فى غير النقد الاجتماعى للأفكار الخصبة التى يطرحها علينا. فمن الأخطاء التى نأخذها على دو شاردان وعلى الكثيرين غيره من المفكرين التطوريين ربط التطور الاجتماعى بالتطور البيولوجى. إذ من شأن هذا أن يدفعه إلى إغفال كثير من العوامل الاجتماعية والثقافية ذات الأهمية الكبرى فى عملية التطور الاجتماعى، ومنها بالذات عامل الاتصال، وما

يرتبط به من الانتشار الثقافي. إذ أن هذه العوامل تفسر لنا بطريقة أكفأ كثيرا من أوجه الشبه في عناصر الثقافة المادية والروحية وقد قدمت الدراسات الانثولوجية - ويخاصة عند جريبنر Greebner ومدرسته - اسهامات لها قيمتها في هذا الصدد. (قارن لمزيد من التفاصيل: تيماشيف: نظرية علم الاجتماع، (صفحات ٢٢٠ وما بعدها).

ومن الانتقادات التقليدية للنظرة التطورية المآخذ المنهجية الخطيرة التي وقع فيها العلماء التطوريون؛ إذ يفترضون عادة أنهم يتبعون المنهج المقارن. ولكنهم يعمدون في الحقيقة إلى انتقاء الشواهد التي تتفق والاطار التطوري الذي يحددونه ويلتزمون به. أما ما لا يتفق وهذا الاطار فإنهم يعتبرونه مخلفات أو رواسب مراحل سابقة قديمة. فالجديد في الواقع في فكر دو شاردان ليس هو الفكر التطوري، أو تأكيده على البعد التطوري فهو مسبوق في ذلك، وإنما تأكيده على الإنسانية كظاهرة مستقلة من نوع خاص.

ولكننا نجده يعتبر الوحدة الفكرية البشرية شرطا أساسيا من شروط التقدم. وهنا نكتفي بالتساؤل: أي

نوع من الوحدة، وعلى أى نوع من الفكر؛ الاشتراكى اليسارى أم البورجوازى اليمينى المحافظ؟ ان العالم تتصارعه أيديولوجيتان توجه كل منهما كل نواحى الفكر والحياة فى بيئتها، فعلى أى وحدة يريد لنا المؤلف أن نلتقى؟ لاشك أن الأمر لا يحتاج إلى كثير من التخمين كى نعرف أنه يريد وحدة على الفكر البورجوازى الآخذ بالأيديولوجية الدينية. ونحن فى العالم الثالث فى حاجة إلى طريق مستقل لا يلزم بالضرورة أن يكون واحدا من الطريقين اللذين ينقسم إليهما العالم. والأمر لم يقفل فيه باب المناقشة على أى حال، ولا يمكن أن نقبل الحل الذى يقدمه لنا دو شاردان ومن نحا نحوه.

ثم نواصل تساؤلاتنا: أى غرض يطلب من هذه الوحدة أن تحققه.. فى أى إتجاه يجب أن تسير، وأى الغايات يجب أن تستهدف؟ هذه كلها لا شك أسئلة تطرح نفسها ازاء هذا الالحاح على قضية الوحدة الفكرية على المستوى العالمى.

ثم ننتقل إلى نقطة أخرى هامة وخطيرة فى فكر دو شاردان. إذا تأملنا مفهومه عن «نقطة النهاية» لوجدناه

يعاني غموضا ليس بالهين. فلو صح أنه يساوى بين هذا النوع المقبل من التنظيم النفسي الاجتماعي فوق الشخص ونوع من الألوهية الجديدة؛ لا ستوجب ذلك منا رفع الصوت بالاعتراض والرفض. فهؤلاء المفكرون لا يتكلمون فى النهاية إلا من مجتمعاتهم. أما المجتمعات الأخرى فهى تتخذ مسارا تطوريا آخر مختلفا، وليس من المقطوع به أنها ستسير فى نفس الطريق وهنا نكرر الإشارة إلى الثغرة المنهجية الخطيرة فى فكر دو شاردان - كعالم تطورى - وهو أنه قد أغفل بشكل واضح مضامين التاريخ السياسى والاجتماعى، أى تأثير هذه العوامل فى دفع التطور البشرى وتوجيهه. فهذا التطور الإنسانى ليس نتيجة وحيدة أو مجرد صدى للتطور العضوى. إذ رغم اشتراك الجنس البشرى فى العمليات الأساسية لهذا التطور العضوى - من انتخاب طبيعى وخلافه - إلا أننا نلاحظ بمنتهى الوضوح أن البشرية لم تصل كلها إلى نفس المستوى فى أى مجال. وذلك سيد الأدلة على فعل العوامل الاجتماعية فى دفع وتوجيه التطور الإنسانى.

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٤/٤٩٩٩

I.S.B.N 977-01-3851-7

مكتبة الأسرة

القراءة للجميع
مهرجان صيف ٩٤
جمعية الرعاية المتكاملة

بسعر رمزى عشرة قروش
بمناسبة
مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٤

مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب